سورة الحديد: الآية ٢٨

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

رجح شيخ الإسلام أن الخطاب في هذه الآية للمؤمنين من هذه الأمة، وقد سبق ذكر كلامه عند قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (١).

الدراسة:

اختلف المفسرون في الخطاب المذكور فيها على قولين:

القول الأول: أن الخطاب المذكور في الآية لمؤمني هذه الأمة، ويروى عن ابن عباس – رضي الله عنهما –(٢)، ومقاتل بن حيان(٣)، فقد روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴾، إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾(٤)، افتخر أهل

---

(١) انظر ص ٤٥٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٣٣٤١/١٠، والطبراني في الأوسط ٣٢٢/٨ ح٧٦٥٨ من طريق سعيد بن جبير، وأخرجه ابن جرير ٦٩٣/١١ عن سعيد بن جبير، وفيه قصة.

(٣) أخرجه عن مقاتل ابن أبي حاتم ٣٣٤١/١٠.

(٤) سورة القصص: الآيات ٥٢ – ٥٤.

الكتاب[1] على المسلمين، فقالوا: يا معشر المسلمين: أما من آمن منا بكتابكم فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم، فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ فزادهم النور والمغفرة.

واستدل له شيخ الإسلام – كما تقدم – بدليلين:

١ – أن الله – تعالى – لم يقل قط للكفار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٢ – سياق الآية حيث قال في الآية التي بعدها: ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

وقال الشنقيطي في تفسيره: "التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد في المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح في ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ

(١) في رواية ابن جرير ٦٩٣/١١: "فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن بقوله: ﴿ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ فخروا على المسلمين، فقالوا: يا معشر المسلمين، أما من آمن منا بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم، فما فضلكم علينا؟ فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ فجعل لهم أجرهم، وزادهم النور والمغفرة، ثم قال: ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾، وهكذا قرأها سعيد ابن جبير: (لكيلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء).

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ ﴾ الآية.

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم أن إيتاء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بيّنه بقوله: ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾، وزادهم بقوله: ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾[(١)].

واختار هذا القول بعض المفسرين، وممن اختاره شيخ الإسلام -كما تقدم-، وأبوحيان[(٢)]، والألوسي[(٣)]، والسعدي[(٤)]، والشنقيطي[(٥)].

القول الثاني: أن الخطاب في الآية موجه لمؤمني أهل الكتاب: اليهود والنصارى؛ وبه قال ابن عباس، والضحاك[(٦)].

واستدل أصحاب هذا القول بحديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده، فله أجران، ورجل كانت له أَمَةٌ فغَذَاهَا فأحسن غذاءها، ثم

---

(١) أضواء البيان ٨١٦/٧.

(٢) تفسيره البحر المحيط ٢٢٧/٨.

(٣) تفسيره روح المعاني ١٩٣/٢٧.

(٤) تفسيره ص٨٤٣.

(٥) أضواء البيان ٨١٦/٧.

(٦) أخرجه عنهما ابن جرير ٦٩٣/١١.

أدبها فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران"[١].

واختار هذا القول عامة المفسرين، وممن اختاره الطبري[٢]، والماوردي[٣]، والواحدي[٤]، والسمعاني[٥]، والبغوي[٦]، وابن الجوزي[٧] ونسبه لعامة المفسرين، والقرطبي[٨]، والبيضاوي[٩]، وأبوالسعود[١٠].

والراجح – والله أعلم – القول الأول، لدلالة السياق عليه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٦٩/٦ ح٣٠١١ [ط السلفية] كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، ومسلم ١٣٤/١ ح١٥٤، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس.

(٢) تفسيره النكت والعيون ٦٩٣/١١.

(٣) تفسيره ٤٨٥/٥.

(٤) الوسيط ٢٥٦/٤.

(٥) تفسيره ٣٨١/٥.

(٦) تفسيره ٤٤/٨ [ط طيبة].

(٧) زاد المسير ٣١٢/٧.

(٨) تفسيره ١٧٢/١٧.

(٩) تفسيره ٤٧٢/٢.

(١٠) إرشاد العقل السليم ٢١٤/٨.

سورة الممتحنة: الآية ١٢

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ عام في جميع ما يأمر به الرسول ﷺ من شرائع الإسلام.

قال – رحمه الله – في أثناء حديثه عن لفظ (المعصية) ومدلولاته: "وقد قال: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ فقيّد المعصية، ولهذا فسرت بالنياحة؛ قاله ابن عباس، وروي ذلك مرفوعاً، وكذلك قال زيد بن أسلم: لا يَدْعُنَّ ويلاً، ولا يَخْدُشن وجهاً ولا ينشرن شعراً ولا يشققن ثوباً. وقد قال بعضهم: هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الإسلام وأدلته؛ كما قاله أبو سليمان الدمشقي[2]، ولفظ الآية عام أنهن لا يعصينه في معروف، ومعصيته لا تكون إلا في معروف؛ فإنه لا يأمر بمنكر لكن هذا كما قيل: فيه دلالة على أن طاعة أولي

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٢.

(٢) هومحمد بن عبد الله بن سليمان السعدي، أبو سليمان الدمشقي الشافعي، المفسر، من مؤلفاته: مجتبى التفسير، والتفسير المهذب، توفي قبل الأربعمائة. انظر طبقات الداوودي ٢/١٦٠، وطبقات الأدنه وي ص ٩٥.

الأمر إنما تلزم بالمعروف..."[١].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه عام في جميع ما يأمرهن به رسول الله ﷺ من شرائع الإسلام وآدابه.

قال ابن زيد: "فالمعروف كل معروف أمرهن به في الأمور كلها، وينبغي لهن ألا يعصين"[٢].

وقال عطاء: "في كل بر وتقوى"[٣].

وعن الضحاك أنه قال: "والمعروف: ما اشترط عليهن في البيعة أن يتبعن أمره"[٤].

وهذا الذي اختاره الزجاج وقال: "المعنى: لا يعصينك في جميع ما تأمرهن به بالمعروف"[٥]، والواحدي[٦]، والرازي[٧]، وشيخ الإسلام -كما تقدم-،

---

(١) مجموع الفتاوى ٦٠/٧، وقد حكى الخلاف عن ابن الجوزي في زاد المسير ١٣/٨.

(٢) أخرجه ابن جرير ٧٦/١٢.

(٣) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٢٨٨/٤.

(٤) أخرجه ابن جرير ٧٥/١٢.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١٦٠/٥.

(٦) تفسيره الوسيط ٢٨٨/٤.

(٧) تفسيره ٢٦٧/٢٩.

وابن جُزي[١]، والشوكاني[٢]، والقاسمي[٣]، والسعدي[٤]، وأبو سليمان الدمشقي[٥].

القول الثاني: أن المراد بذلك النياحة، وبه قال ابن عباس –رضي الله عنهما–[٦]، وجابر بن عبدالله ﷺ[٧]، وأبو العالية[٨]، وسالم بن أبي الجعد[٩][١٠]، وقتادة[١١]، وأبو صالح[١٢]، وأم عطية[١٣]، ورُوى ذلك مرفوعاً[١٤].

وقال زيد بن أسلم: "لا يخدشن وجهاً، ولا يشققن جيباً، ولا يَدْعُونَّ ويلاً،

---

(١) تفسيره ٤٣٩/٢.

(٢) فتح القدير ٣٠٧/٥.

(٣) تفسيره ١٣٥/١٦.

(٤) تفسيره ص٨٥٨.

(٥) ذكره عنه ابن الجوزي ١٣/٨.

(٦) أخرجه ابن جرير ٧٣/١٢.

(٧) ذكره عنه السيوطي في الدر ٣١٤/٦، وعزاه لابن مردويه.

(٨) ذكره في الدر ٣١٣/٦، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٩) هو سالم بن أبي الجعد الأشجعي الغطفاني مولاهم الكوفي، الفقيه أحد الثقات، توفي سنة ١٠٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٠٨/٥، وتهذيب التهذيب ٤٣٢/٣.

(١٠) أخرجه ابن جرير ٧٣/١٢، وانظر: الدر المنثور ٣١٣/٦.

(١١) أخرجه عبد الرزاق ٣٠٥/٣، وابن جرير ٧٤/١٢.

(١٢) أخرجه ابن جرير ٧٣/١٢.

(١٣) أخرجه ابن جرير ٧٦/١٢، وانظر: الدر المنثور ٣١٢/٦.

(١٤) أخرجه ابن جرير ٧٥/١٢ عن أم عطية، وأحمد ٣٢٠/٦، والترمذي ٣٨٣/٥، ح٣٣٠٧، كتاب تفسير القرآن، باب (٦٠)، وحسَّنه، وابن ماجه ٥٠٣/١، ح١٥٧٩، كتاب الجنائز، باب النهي عن النياحة عن أم سلمة – رضي الله عنها – وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١١٧/٣

ولا ينشدن شعراً"[١].

واختاره السمعاني[٢].

القول الثالث: أن المراد بذلك خلوة الرجل بالمرأة، ورُوي عن زهير[٣][٤]، وعن قتادة: "لا يُحدِّثن رجلاً"[٥].

والراجح – والله أعلم – القول الأول، وما ورد عن السلف من تفسيره بالنياحة يحمل على أنهم أرادوا بذلك التمثيل، لا الحصر، لا سيما وأن الحاجة داعية إلى النهي عن النياحة وقت التنْزيل.

---

(١) أخرجه ابن جرير ٧٣/١٢، وعزاه في الدر ٣١٥/٦ لابن أبي شيبة.

(٢) تفسيره ٤٢١/٥.

(٣) هو زهير بن محمد التميمي، أبو المنذر الخرساني، سكن الشام ثم الحجاز، وقد أخرج له السبعة، مات سنة ٢٦٢. انظر التهذيب ٣٤٨/٣، والتقريب ص ٢١٧

(٤) أخرجه ابن جرير ٧٦/١٢.

(٥) أخرجه ابن جرير ٧٤/١٢.

سورة الملك: الآية ٢٧

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ رَأَوْهُ ﴾ يعود على ما وعدوا به من العذاب.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "فإن ضمير المفعول في ﴿ رَأَوْهُ ﴾ عائد إلى الوعد، والمراد به الموعود أي: فلما رأوا ما وعدوا سيئت وجوه الذين كفروا، ومن قال: إن الضمير عائد هنا إلى الله فقوله ضعيف"[٢].

وقال – رحمه الله – أيضاً: "واعتقدوا – أي: من ذهب إلى أن رؤية الله تعالى يوم القيامة عامة للمؤمنين وغيرهم – أن الضمير عائد إلى الله، وهذا غلط؛ فإن الله – سبحانه وتعالى – قال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[٣]، فهذا يبين أن الذي رأوه هو الوعد، أي الموعود به من العذاب، ألا تراه يقول: ﴿ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾"[٤].

---

(١) سورة الملك: الآية ٢٧.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٧١/٦.

(٣) سورة الملك: الآيات ٢٥ – ٢٧.

(٤) مجموع الفتاوى ٤٩٨/٦، وانظر: ٢٥٣/١٩.

الدراسة:

اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ على خمسة أقوال:

القول الأول: أن المعنى: فلما رأوا عذاب الله في الآخرة؛ وبه قال الحسن، وقتادة، وابن زيد[١].

واختاره جمهور المفسرين، وممن اختاره الأخفش[٢]، وابن جرير[٣]، والزجاج[٤]، والثعلبي[٥] ونسبه لأكثر المفسرين، والواحدي[٦]، والسمعاني[٧]، والبغوي[٨] ونسبه لأكثر المفسرين، وابن عطية[٩]، وابن الجوزي[١٠]، وابن

(١) أخرجه عنهم ابن جرير ١٢/١٧٢ – ١٧٣، وأخرجه عن قتادة عبدالرزاق ٢/٣٠٦، وانظر: الدر ٦/٣٨٥.

(٢) معاني القرآن ٢/٥٤٦.

(٣) تفسيره ١٢/١٧٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥/٢٠١.

(٥) تفسيره ٩/٣٦١.

(٦) الوسيط ٤/٣٣٠.

(٧) تفسيره ٦/١٤.

(٨) تفسيره ٨/١٨٠ [ط طيبة].

(٩) المحرر الوجيز ١٦/٧٠.

(١٠) زاد المسير ٨/٦٣.

جزي[١]، وأبو حيان[٢]، وأبو السعود[٣]، والقاسمي[٤]، والسعدي[٥].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "فلما رأى هؤلاء المشركون عذاب الله زلفة، يقول: قريباً، وعاينوه، ﴿ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، يقول: ساء الله بذلك وجوه الكافرين"[٦].

وقال ابن عطية: "﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ ﴾ الضمير للعذاب الذي تضمنه الوعد، وهذه حكاية حال تأتي المعنى: (فإذا رأوه)"[٧].

وقال أبوحيان: "﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةً ﴾ أي رأوا العذاب، وهو الموعود به"[٨].

وقال القرطبي: "وأكثر المفسرين على أن المعنى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ ﴾ يعني العذاب، وهو عذاب الآخرة"[٩].

ودليل هذا القول سياق الآية، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام.

---

(١) تفسيره ٢/٤٧٠.

(٢) البحر المحيط ٨/٢٩٨.

(٣) تفسيره ٩/١٠.

(٤) محاسن التأويل ٦/٢٤٩.

(٥) تفسيره ص٨٧٨.

(٦) تفسيره ١٢/١٧٢.

(٧) المحرر الوجيز ١٦/٧٠.

(٨) تفسيره ٨/٢٩٨.

(٩) تفسيره ١٧/٢٢٠.

القول الثاني: أن المعنى: لما رأوا العذاب يوم بدر، وروي عن مجاهد[١].

قال الرازي: "اعلم أن قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ إخبار عن الماضي، فمن حمل الوعد في قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ على مطلق العذاب سهل تفسيره الآية، فلهذا قال أبو مسلم في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ يعني: أنه لما أتاهم عذاب الله المهلك لهم الذي نزل بعاد وثمود سيئت وجوههم عند قربه منهم، وأما من فسر ذلك الوعد بالقيامة كان قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ معناه فمتى ما رأوه زلفة، وذلك لأن قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ إخبار عن الماضي، وأحوال القيامة مستقبلة لا ماضية، فوجب تفسير اللفظ بما قلناه"[٢].

قال أبوالسعود عن هذا القول: "وهو بعيد"[٣].

القول الثالث: أن المعنى: لما رأوا عملهم السيء قريباً، وروي عن ابن عباس[٤].

القول الرابع: أن المعنى: لما رأوا ما وعدوا من الحشر قريباً منهم، واستدل له بقوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٥] [٦].

---

(١) ذكره عنه الثعلبي ٣٦١/٩، والبغوي في تفسيره ١٨٠/٨ [ط طيبة]، والقرطبي ١٤٣/١٧.

(٢) تفسيره ٢٦/٣٠.

(٣) تفسير أبي السعود ١٠/٩.

(٤) ذكره عنه القرطبي ١٤٤/١٧.

(٥) سورة الملك: الآية ٢٤.

(٦) ذكره والاستدلال له القرطبي ١٤٣/١٧.

وهذان القولان لا يعارضان القول الأول، بل هما من لوازمه[١].

القول الخامس: أن الضمير يعود إلى الله تعالى، والمعنى: لما رأوا الله عياناً، وهذا القول ذكره شيخ الإسلام كما تقدم دليلاً لمن أثبت رؤية الله – جل جلاله – لجميع الناس يوم القيامة، ولم أرَ من قال به من المفسرين، ولكنْ استدل به عبدالله بن الإمام أحمد[٢] في إثبات رؤية الله تعالى يوم القيامة[٣].

وذكر ابن بطة[٤] في الإبانة، هذه الآية دليلاً على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وذكر عندها قول الحسن: "معاينة"[٥].

وقول الحسن هذا أخرجه ابن جرير في تفسيره كما تقدم[٦]، وليس فيه التصريح أو الإشارة إلى أن الضمير يعود إلى الله تعالى، والمتبادر إلى الذهن أنه يعني ما وعدوا به من عذاب الآخرة، وهذا ما فهمه منه ابن جرير وغيره من

---

(١) قال ابن كثير ٤/٤٢٦: "لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا الأمر كان قريباً".

(٢) هو الإمام عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، أبو عبد الرحمن، حافظ للحديث، له زوائد على مسند أبيه، ومسند أهل البيت، وتوفي سنة ٢٩٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٥/١٤١، والأعلام ٤/٦٥.

(٣) كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ٢/٥٢٠.

(٤) هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان، أبو عبد الله العكبري، المعروف بابن بطة، عالم بالحديث، فقيه من كبار الحنابلة، ولد بعكبرا سنة ٣٠٤هـ، وتوفي بها سنة ٣٨٧هـ، من مؤلفاته: الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة. انظر: طبقات الحنابلة ٢/١٤٤ ترجمة رقم (٦٢٢)، وسير أعلام النبلاء ١٦/٢٩.

(٥) الإبانة لابن بطة ٣/٥١.

(٦) اخرجه ابن جرير عنه من طريقين، وقال عنه محقق الإبانة ٣/٥١: "إسناده صحيح".

المفسرين، ولذلك لا يصح أن ينسب إليه هذا القول.

والراجح – والله تعالى أعلم – **القول الأول**: أن الضمير يعود إلى عـــذاب الله في الآخرة؛ لأنه هو الذي يدل عليه سياق الآية كما تقدم، ولأنه قول جمهور المفسرين.

سورة القلم: الآيتان ٥ - ٦

قال تعالى: ﴿ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن المراد بالمفتون في الآية الشيطان، ومعنى ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾ أيكم هو المجنون الذي به المفتون، وهو الشيطان.

قال ـــ رحمه الله ـــ عند هذه الآية: "حار فيها كثير من الناس، والصواب فيها التفسير المأثور عن السلف، وروى ابن أبي حاتم وغيره بالأسانيد الصحيحة عن ابن أبي نجيح[٢] عن مجاهد ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾ قال: الشيطان، وفي رواية قال: هو إبليس. وقال الحسن: أيكم أولى بالشيطان.قال: فهمْ أولى بالشيطان من نبي الله ﷺ.

فبين الحسن المعنى المراد وإن لم يتكلم على اللفظ، كعادة السلف في اختصار الكلام، مع البلاغة وفهم المعنى، وقال الضحاك: ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾ قال: المجنون، فإن من كان به الشيطان ففيه الجنون. وذكر أبو الفرج عنهم أربعة أقوال:

أحدها: الضال؛ قاله الحسن.

والثاني: الشيطان؛ قاله مجاهد.

---

(١) سورة القلم: الآيتان ٥ – ٦.

(٢) هو عبد الله بن أبي نجيح يسار، الإمام الثقة المفسر، أبو يسار، الثقفي المكي، حدث عن مجاهد وطاووس، كان مفتي أهل مكة، توفي سنة ١٣١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٢٥/٦، والتقريب ص٣٢٦.

والثالث: المجنون، قاله الضحاك. قال: والمعنى قد فتن بالجنون، وكذلك رواه العوفي عن ابن عباس.

والرابع: المعذب، حكاه الماوردي.

فهذا الرابع ليس مأثوراً عن السلف، وإنما المأثور ما قدمناه عن السلف عن مجاهد، وعن الضحاك، وعن الحسن، وما ذكره عن الحسن من أنه الضال، فهو لفظ آخر عنه، وهو يوافق ما قدمناه، فإن الضال به المفتون الذي هو شيطان، وإنما ذكر الحسن لفظ الضال لأنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يخرق ثيابه ويقذف بالحجارة، ويتكلم بالهذيان.

وهم إنما نسبوا الأنبياء إلى الجنون لمخالفتهم ما عليه أهل العقل في نظرهم، كما يقال: (ما لفلان عقل معيشي)، فإن الأنبياء أتوا بخلاف ما يعرفونه، وهو عندهم يضر صاحبه في عقله، ويفارق به دينه الذي هم عليه، وكما قال تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾[1].

وقد ذكر أنهم رموه بالجنون في غير موضع من كتابه، وكذلك الأنبياء قبله، فرد الله ذلك على المشركين، وأخبر أنه ليس بمجنون، ثم قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي أيكم هو المجنون الذي به المفتون، وهو الشيطان؟.

وهذا الأمر قد رمي به أتباع الرسل من مثل هؤلاء...

---

(١) سورة القلم: الآية ٥١.

ويدل أيضاً على هذا المعنى في الآية أن قراءة أُبي بن كعب، والجوني[١]، وابن أبي عبلة[٢]، (في أييكم المفتون)، والشيطان مفتون بلا ريب.

والذين لم يفهموا هذا قالوا: الباء زائدة، كما قال أبو عبيدة، وابن قتيبة، وأبو بكر، وكذلك نحاة البصرة والكوفة، ثم ذكروا قولين:

أحدهما: أن المفتون مصدر، كما زعموا أن المعقور، والمعقود، والمجلود يكون مصدراً.

ومنهم من قال: ﴿ بِأَيِّيكُمُ ﴾ أي: بأي الفريقين المفتون، أي: المجنون، أبالفريق الذي أنت فيهم أم بفريق الكفار؟.

وهذه أقوال ضعيفة، وكون المفتون بمعنى الفتنة لا أصل له في اللغة البتة، وجعل المصدر على زنة (مفعول) لو صح لم يكن قياساً، بل مقصوراً على السماع، كيف وفيما ذكروه كلام ليس هذا موضعه؟ وكذلك قول من يقول: (بأي الفريقين؟).

والمقصود أن جميع الكفار مفتونون بالشيطان، وفيهم الشيطان المفتون، ليس المقصود أن يعاب الفريق بواحد منهم.

---

(١) هو أبو عمران، عبد الملك بن حبيب البصري، الإمام الثقة، روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن الصامت، توفي سنة ١٢٣هـ عن سن عالية. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٥٥/٥، وتهذيب التهذيب ٣٨٩/٦.

(٢) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن أبي عبلة العقيلي الشامي المقدسي، من بقايا التابعين، الإمام القدوة، ولد بعد الستين، وتوفي سنة ١٥٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٢٣/٦، وتهذيب التهذيب ١٤٢/١.

وقد كان بعض الكفار يقول: إن الذي يأتي محمداً شيطان لا ملك، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[١]، وقال ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾[٢]، وقال فيمن كذب رسوله: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾[٣]، فهذا الكاذب الفاجر هو الذي فيه الشيطان الذي إنما يقترن بكل أفاك أثيم..."[٤].

الدراسة:

قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ منهم من حمله على ظاهره، وهو أن المراد الرؤية البصرية، ومنهم من ضمّنه معنى تعلم، والتقدير: فستعلم ويعلمون، أو فستُخبر ويخبرون، والمفتون: من افْتَتَن عن الحق وضلّ عنه.

وهو اسم مفعول، وقيل إنه مصدر على وزن المفعول؛ مثل المعقول، والميسور، بمعنى العقل واليُسْر.

قال ابن كثير: "ومعنى المفتون ظاهر، أي الذي قد افْتَتَن عن الحق، وضلَّ عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿ بِأَيِّيكُمُ ﴾ لتدلَّ على تضمين الفعل في قوله: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾، وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو فستُخبر

---

(١) سورة التكوير: الآية ٢٥.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢١.

(٣) سورة العلق: الآيتان ١٥ – ١٦.

(٤) تفسير آيات أشكلت ١٤٦/١ – ١٥٩، وانظر: مجموع الفتاوى ٧٢/١٦، فقد ذكرها مختصرة جداً.

ويُخبرون، بأيكم المفتون والله أعلم"[١].

وقال ابن عاشور: "المفتون: اسم مفعول، وهو الذي أصابته فتنة، فيجوز أن يراد بها هنا الجنون، فإن الجنون يعدّ في كلام العرب من قبيل الفتنة، ويقولون للمجنون (فتنته الجن)، ويجوز أن يراد ما يصدق على المضطرب في أمره المفتون في عقله حيرة وتقلقلاً... والباء على هذا الوجه مزيدة لتأكيد تعلق الفعل بمفعوله، والأصل: أيكم المفتون"[٢].

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ في الآية على أقوال أربعة:

القول الأول: أن المعنى: بأيكم المجنون؛ وروي عن مجاهد[٣]، والمراد على هذا القول: في أي الفريقين المجنون، في فريقك يا محمد ﷺ أو فريقهم، وتكون الباء بمعنى (في)[٤].

القول الثاني: أن المعنى: بأيكم الجنون، وقد روي عن مجاهد أنه قال: "الشيطان"[٥]، وروي عن ابن عباس والضحاك[٦] أنهما قالا: "الجنون"، وعلى هذا القول يكون المفتون مصدراً بمعنى الفتنة، كما قيل: ليس له معقول، ولا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٣٠.
(٢) تفسير ابن عاشور ٢٩/٦٦.
(٣) تفسير ابن جرير ١٢/١٨٠.
(٤) تفسير ابن جرير ١٢/١٨٠.
(٥) أخرجه ابن جرير ١٢/١٨١، وصحح إسناده شيخ الإسلام كما تقدم.
(٦) تفسير ابن جرير ١٢/١٨٠.

معقود، أي: ليس له عقل ولا عقد[١].

ورجحه ابن جرير، وقال: "لأن ذلك أظهر معاني الكلام، إذا لم يُنوَ إسقاطُ الباء، وجعلنا لدخولها وجهاً مفهوماً، وقد بيَّنا أنه غير جائز أن يكون في القرآن شيء لا معنى له"[٢].

القول الثالث: أن المعنى: أيكم أولى بالشيطان؛ وروي عن قتادة[٣]، وعلى هذا تكون الباء زائدة[٤].

القول الرابع: أن معنى المفتون: المعذَّب، قال الماوردي: "من قول العرب: فتنتُ الذهب بالنار، إذا أحميته، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[٥]"[٦].

وقد قال ابن تيمية عن هذا القول: "ليس مأثوراً عن السلف".

وقد اختلف أهل اللغة في الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾ على قولين:

القول الأول: أنها مزيدة لتأكيد تعلق الفعل بمفعوله، والأصل: (أيكم المفتون) كما زيدت في نحو: بحسبك زيد، وكما في قول الشاعر:

---

(١) تفسير ابن جرير ١٢/١٨١.

(٢) تفسيره ١٢/١٨١.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٣/٣٣٠ [ط محمود عبده]، وابن جرير ١٢/١٨١.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٢/١٨١، وإعراب القرآن للنحاس ٥/٧، والدر المصون ١٠/٤١٠.

(٥) سورة الذاريات: الآية ١٣.

(٦) تفسير الماوردي ٦/٢٦.

نحن بنو جَعْدَة أصحابُ الفَلَج ** نضرب بالسيف ونرجو بالفرج[١]

أي: نرجو الفرج.

واختاره بعض العلماء، كأبي عبيدة[٢]، والأخفش[٣]، وابن قتيبة[٤]، والواحدي[٥]، وهو مُقتضى قول قتادة كما تقدم.

وعلى هذا القول، يكون الكلام تاماً عند قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾[٦].

وقد ضعّف هذا القول الزجاج، وقال: "والباء في ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ لا يجوز أن تكون لغواً، وليس جائزاً في العربية في قول أحد من أهلها"، وأجاب عن البيت الذي استدل به أبو عبيدة بقوله: "وليس كذلك، والمعنى: نرجو كشف ما فيه نحن بالفرج أو نرجو النصر بالفرج"[٧].

كما ضعّفه السمين الحلبي بقوله: "إلا إنه ضعيف من حيث إن الباء لا تزاد

---

(١) البيت للنابغة الجعدي، انظر: الخزانة ١٥٩/٤.

(٢) مجاز القرآن ٢٦٤/٢.

(٣) معاني القرآن ٥٤٧/٢.

(٤) التأويل ص٢٤٨.

(٥) الوسيط ٣٣٥/٤.

(٦) الدر المصون ٤٠٢/١٠، وقال السّمين الحلبي: "ينبغي أن يقال إن الكلام إنما يتم على قوله: ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ سواء قيل بأن الباء مزيدة أم لا؛ لأنه فعل بمعنى الرؤية، والرؤية البصرية تُعلّق على الصحيح بدليل قولهم: (أما ترى أيَّ بَرْق ههنا) فكذلك الإبصار لأنه هو الرؤية بالعين".

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢٥٠/٥.

في المبتدأ إلا في (حَسْبُك) فقط"[١].

وتقدم قول ابن جرير: "وقد بيّنا أنه غير جائز أن يكون في القرآن شيء لا معنى له"[٢].

القول الثاني: أن الباء أصلية غير زائدة، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ متعلقاً بقوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وهو قول الجمهور أنها متصلة بالآية قبلها[٣].

ولهذا القول أربعة أوجه:

الأول: أن الباء ظرفية، بمعنى (في)، والمعنى: في أي الفريقين منكم يكون المجنون، أي: من يصدق عليه هذا الوصف، والباء تأتي بمعنى (في) كما يقال: زيد بالبصرة، وهذا المعنى مرويٌ عن مجاهد - كما تقدم- واختاره الفراء[٤]، وتؤيده قراءة أُبي، وأبي عمران الجوني وابن أبي عبلة (في أيكم المفتون)[٥].

قال النحاس: "والمعنى عليه: فستعلم وسيعلمون في أي الفريقين المجنون الذي

---

(١) الدر المصون ٤٠١/١٠.

(٢) وانظر: قواعد الترجيح ٤٩٥/٢، فقد ذكر هذه الآية مثالاً لقاعدة: إذا دار الكلام بين الزيادة والتأصيل فحمله على التأصيل أولى.

(٣) تفسير أبي حيان ٣٠٣/٨، والتبيان لابن القيم ص١٣٦.

(٤) معاني القرآن ١٧٣/٣.

(٥) القراءة شاذة، وقد ذكرها ابن الجوزي ٦٧/٨، واستدل بها لهذا القول، كما استدل بها ابن عطية، وشيخ الإسلام، والسمين ٤٠١/١٠.

لا يتبع الحق، أفي فريقك، أم في فريقهم"[١].

وقال عنه ابن عطية: "هذا قول حسن قليل التكلف"[٢].

وقد ضعّف هذا شيخ الإسلام كما تقدم، وقال: "إن جميع الكفار مفتونون بالشيطان، وفيهم الشيطان المفتون، ليس المقصود أن يعاب الفريق بواحد منهم"[٣].

الوجه الثاني: أنه على حذف مضاف والتقدير، بأيكم فُتن المفتون، وتكون الباء سببية، واختاره الأخفش[٤].

وعلى هذين القولين يكون ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ اسماً وليس بمصدر[٥].

الوجه الثالث: أنه مصدر جاء على وزن مفعول، كالمعقول بمعنى العقل، والميسور بمعنى اليسر، وهذا المعنى مروي عن الحسن والضحاك - كما تقدم- وتقدير الكلام على هذا: بأيكم الفُتون[٦].

قال النحاس: "والمعنى فستعلم وسيعلمون بأيكم الفتنة، والمفتون بمعنى الفتنة والفتون، كما يقال: ليس له معقول ولا معقود رأي، وهذا من أحسن ما قيل

---

(١) إعراب القرآن ٧/٥.

(٢) تفسير ابن عطية ٤٢/١٦.

(٣) إعراب القرآن ٧/٥.

(٤) معاني القرآن ٥٤٧/٢، وانظر:الدر المصون ٤٠١/١٠.

(٥) انظر: معاني القرآن للفراء ١٧٣/٣.

(٦) انظر: معاني القرآن للزجاج ٢٠٥/٥.

فيه"[١]، واختاره أيضاً الواحدي في الوجيز[٢]، وابن الأنباري[٣].

وقد ضعَّف هذا شيخ الإسلام كما تقدم، وبيَّن أنه لا أصل له في اللغة، ولو صح لم يكن قياساً، بل مقصوراً على السماع.

قال ابن عاشور: "والباء على هذا للملابسة في محل خبر مقدم على ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ وهو مبتدأ يُضَمَّن فعلُ (تبصر ويبصرون) معنى: تُوقن ويوقنون، على طريق الكناية بفعل الإبصار عن التحقق؛ لأن أقوى طرق الحس حاسة البصر، ويكون الإتيان بالباء للإشارة إلى هذا التضمين"[٤].

قال ابن القيم بعد أن ذكر هذه الأقوال: "وهذه الأقوال كلها تكلُّف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه، و(ستبصر) مُضمّن معنى تَشْعُر وتَعْلَم، فَعُدِّي بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[٥]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من كان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد"[٦].

الوجه الرابع: قول شيخ الإسلام: أيُّكم هو المجنون الذي به المَفْتُون، وهو الشيطان.

---

(١) إعراب القرآن ٧/٥.

(٢) الوجيز للواحدي ١١٢١/٢.

(٣) البيان ٤٥٣/٢.

(٤) التحرير والتنوير ٦٧/٢٩.

(٥) سورة العلق: الآية ١٤.

(٦) التبيان في أقسام القرآن ص١٣٦، وتوجيهه للآية بمعنى قول ابن كثير المتقدم ذكره.

والأظهر – والله تعالى أعلم – أن المراد بـ﴿ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ المجنون، كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين، وممن اختار ذلك السمرقندي[١]، الواحدي في الوسيط[٢]، والزمخشري[٣]، وأن معنى قوله تعالى: ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ في أي الفريقين منكم يوجد المجنون؛ لأن الباء تأتي بمعنى (في)، ولورود القراءة التي تؤيده، ولأنه أقل تكلفاً من الأقوال الأخرى كما ذكر ابن عطية.

(١) تفسيره ٣/٣٩٢.
(٢) الوسيط ٤/٣٣٥.
(٣) الكشاف ٤/١٢٦.

سورة القلم: الآية ٤٢

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن المراد بالساق في الآية صفة من صفات الله تعالى.

قال – رحمه الله –: "يقال: كشف البلاء أي أزاله، ورفعه، ويقال: كشف عنه؛ أي: أظهره وبيَّنه، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[٤]، ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾، لم يقل: يوم يكشف الساقَ، وهذا يبيِّن خطأ من قال: المراد بهذه الآية كشفُ الشدة، وأن الشدة تسمى ساقاً، وأنه لو أُريد ذلك لقيل: يوم يكشف عن الشدة، أو يكشف الشدةَ، وأيضاً فيومُ القيامة لا يَكْشف الشدةَ عن الكفار، والرواية في ذلك عن ابن عباس ساقطة الإسناد"[٥].

وقال – رحمه الله –: "إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما

---

(١) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٢) سورة النحل: الآية ٥٤.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٧٥.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٥٠.

(٥) تلخيص الاستغاثة ص٢٨٨.

رووه من الحديث ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم أجد – إلى ساعتي هذه – عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات، أو أحاديث الصفات، بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف؛ بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته وبيان أن ذلك من صفات الله، ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيئاً كثيراً، وتمام هذا أني لم أجدهم تنازعوا إلا في مثل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ فروي عن ابن عباس وطائفة أن المراد به الشدة، أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات؛ للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين.

ولا ريب أن ظاهر القرآن [لا] يدل على أن هذه من الصفات فإنه قال: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله و لم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف"[1].

الدراسة:

اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ على

(١) مجموع الفتاوى ٣٩٤/٦.

أربعة أقوال[١]:

القول الأول: أن المعنى: يوم يكشف الربُّ جلَّ جلاله عن ساقه الكريمة؛ فهي من صفات الله – تعالى – الثابتة اللائقة بجلاله وعظمته، فلا تُعطَّل، ولا تكيف، ولا تشبه، ولا تأوَّل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

وقد دلت السنة على هذا المعنى، حيث وردت عدة أحاديث تؤيد هذا المعنى، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "يَكْشف ربُّنا عن ساقه، فيسجد له كلُّ مؤمن ومؤمنه، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهرهُ طبقاً واحداً"[٣].

وفي رواية أخرى مطوَّلة لهذا الحديث: "فيقول أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونها؟ فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة، فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً"[٤].

---

(١) وهناك أقوال أخرى ساقطة ومحدثة أعرضت عنها.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٣/٨ [ط السلفية] ح٤٩١٩، كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

(٤) أخرجه البخاري ٤٢١/١٣ [ط السلفية] ح٧٤٣٩، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ومسلم ١٦٧/١ ح١٨٣، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية بلفظ"فيكشف عن ساق".

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ في حديث طويل أنه قال: "فعند ذلك يكشف الله عن ساقه، فيخرُّ كل من كان بظهرِ طَبَق[١] ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر[٢]، يُدعون إلى السجود فلا يستطيعون، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون"[٣].

واختار هذا القول بعض العلماء، كشيخ الإسلام - كما تقدم -، وابن القيم[٤]، والشوكاني[٥]، وصديق حسن[٦].

القول الثاني: أن المعنى: يوم يكشف عن شدة، وأمر عظيم.

وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -؛ أنه سئل عن قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾، قال: "إذا خفى عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:

اصبر عناقُ إنه شرٌّ باق ** قد سن قومُك ضرب الأعناق

---

(١) الطَّبق: فَقَارُ الظَّهر واحدها طَبقة، النهاية ١٤/٣.

(٢) صياصي البقر: قرونها، واحدها صِيْصَة، النهاية ٦٧/٣.

(٣) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ٢ /٥٢٢ ح١٢٠٣، والبيهقي في البعث والنشور رقم ٤٣٤ ص ٢٥٢، والحاكم ٥٨٩/٤ بلفظ"فيكشف عن ساق"، وقال: صحيح ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي، وصححه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٣٨٠/١٥ والمنذري في الترغيب والترهيب ٢٩٨/٤، وانظر: المنهل الرقراق في تخريج ما روي عن الصحابة والتابعين في تفسير ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

(٤) الصواعق المرسلة ٢٥٣/١.

(٥) تفسيره ٣٩٥/٥.

(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن ٢٧٣/١٤.

وقامت الحرب بنـــا عن ساق

قال ابن عباس: هذا يوم كَرْبٍ وشدة"[١].

واستدل أصحاب هذا القول باللُغة، وقالوا: إن العرب تعبر بذلك عن الأمر الشديد، قال ابن عطية: "والكشف عن ساق: مثلٌ لشـــدة الحـــال، وصـــعوبة الخطب والهول، وأصله أن المرء إذا هَلِع أن يسرع في المشـــي ويشـــمِّر ثيابـــه فيكشف عن ساقه، كما يقال: شَمَّر عن ساعد الجدِّ، وأيضاً كـــانوا في الـــرَّوع والهزيمة يُشمِّر الحرائر عن سُوقهن في الهرب أو العمل، فتنكشف سوقُهن بحيث يُشْغِلُهنَّ هولُ الأمر عن الاحتراز من إبداء ما لا يبدينه عادة، فيقال: كشـــفت عن ساقها، أو شمرت عن ساقها، أو أبدت عن ساقها"[٢].

ولهذا الاستعمال شواهدُ كثيرةٌ من الشعر، منها:

كشفتْ عن ســـاقها ** وبدا من الشر البواح[٣]

وقول الآخر:

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٢/١٩٧، والحاكم ٢/٤٩٩، وهذا لفظه، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقـــه الذهبي، وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس من طرق متعددة، انظر: تفسير ابن جرير ٢/٤٩٧ – ٤٩٨، والدر المنثور: ٦/٣٩٧ – ٣٩٨، وقد ضعف هذا الأثر ابن تيمية – كما تقدم – وجميع الأسانيد التي روي بها هذا الأثر ضعيفة ضعفاً لا ينجبر، انظر: المنهل الرقـــراق ص١٧ – ٣١، وحسنه الحافظ بن حجر في الفتح ١٣/٤٢٨، ولم أعرف قائل هذا البيـــت، وهـــو في البحـــر ٨/٣١٠، بلفظ"صبراً أُمام".

(٢) تفسير ابن عطية ١٩/٩٧، وانظر: تأويل مشكل القرآن ص١٣٧.

(٣) قائل هذا البيت جدُّ طرفة بن العبد سعد بن مالك. انظر: اللسان ٤/٢١٥٥، مـــادة (ســـوق)، وانظر: البحر ٨/٣٠٩، والدر المصون ١٠/٤١٧.

في سنةٍ قد كشفتْ عن ساقها ** حمراءَ تَبْرى اللحم عن عُراقها[١]

ومن أدلة هذا القول أنه قُرئ (يوم تكشِفُ) على تقدير: تكشف الشدةُ أو القيامة أو الساعة عن ساقها[٢].

وهذه القراءة شاذة، قال الفراء[٣]: "والقراء مجمعون على رفع الياء".

وقال النحاس بعد أن ذكر القراءة المتواترة في الآية: "هذه القراءة التي عليها جماعة الحجة، وما يروى من غيرها يقع فيه الاضطراب"[٤]، ثم ذكر بعض القراءات الشاذة في الآية: تكْشِف، يَكْشِف، نَكْشِف.

وروي هذا القول عن إبراهيم النخعي، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة[٥]، وهو قول جمهور المفسرين، وممن اختاره الفراء[٦]، والزجاج[٧]،

---

(١) لم أعرف قائله، والعُراق: العظم بغير لحم. انظر: اللسان ٢٩٠٦/٥ مادة (عَرَقَ)، وانظر: البحر المحيط ٣٠٩/٨، والدر المصون ٤١٧/١٠.

(٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس ١٤/٥، وتفسير ابن عطية ٩٧/١٩.

(٣) معاني القرآن ١٧٧/٣.

(٤) في الإعراب ١٤/٥.

(٥) أخرجها ابن جرير ١٩٧/١٢ – ٢٠٠، وانظر: الدر المنثور ٣٩٨/٦ – ٣٩٩، ودرس أسانيد هذه المرويات سليم الهلالي في المنهل الرقراق، وخَلَص إلى أنه لا يصح شيء منها.

(٦) معاني القرآن ١٧٧/٣.

(٧) معاني القرآن وإعرابه ٢١٠/٥.

والنحاس[١]، والثعلبي[٢]، والواحدي[٣]، والزمخشري[٤]، وابن عطية[٥]، والبيضاوي[٦]، وابن جزي[٧]، والسمين[٨]، والقاسمي[٩]، وابن عاشور[١٠].

وقد أولوا ما ورد في حديث أبي سعيد وابن مسعود - رضي الله عنهما- بأن المعنى: يشتد أمرُ الرحمن ويتفاقم[١١].

وهذا التأويل باطل، ويرده السياق من وجوه:

أحدها: أنه قال: فيتمثَّل لهم الرب، والشدائد لا تسمى ربًّا.

الثاني: أنه قال: فيخرون له سجداً، والسجود لا يكون للشدائد[١٢].

وقد أجاب أبو يعلى عما روي عن ابن عباس وغيره بقوله: "والذي روى

---

(١) الإعراب ١٤/٥.

(٢) تفسيره ١٨/١٠.

(٣) الوسيط ٣٣٩/٤.

(٤) الكشاف ١٣١/٤.

(٥) تفسيره ٨٦/١٦.

(٦) تفسيره ٥١٨/٢.

(٧) تفسيره ٤٧٥/٢.

(٨) الدر المصون ٤١٩/١٠.

(٩) تفسيره ٢٦٤/١٦.

(١٠) التحرير والتنوير ٩٧/٢٩.

(١١) ذكر هذا التأويل الزمخشري ١٣١/٤، وانظر: تفسير ابن عطية ٨٦/١٦، وأبي حيان ٣٠٩/٨، وابن جزي ٤٧٥/٢.

(١٢) انظر: إبطال التأويلات لأبي يعلى ١٥٩/١.

عن ابن عباس والحسن، فالكلام عليه من وجهين:

أحدهما: أن يحتمل أن يكون هذا التفسير منهما على مقتضى اللغة، وأن الساق في اللغة هو الشدة، ولم يقصدا بذلك تفسيره في صفات الله - تعالى- في موجب الشرع.

والثاني: أنه يعارض ما قاله عبد الله بن مسعود، ثم ذكره بإسناده عنه ﷺ أنه قال في قوله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: "عن ساقيه جلّ ذكره".

ثم ذكر رواية أخرى: بلفظ"يكشف الرحمن عن ساقه"، ورواية ثالثة بلفظ: "قال عبد الله بن مسعود في قوله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يعني: عن ساقه اليمنى، فيضيء من نور ساقه اليمنى".

ثم قال: "فهذا قول ابن مسعود، وناهيك بعبد الله أوّل المُقدَّمين من الصحابة بعد العشرة..."[(١)].

وتقدم جواب شيخ الإسلام عن هذا القول، وأنه لو كان المراد الكشف عن الشدة لقال: يوم يكشف عن الساق أو يكشف عن الشدة، وأن يوم القيامة لا يكشفُ الشدةَ عن الكفار[(٢)].

القول الثالث: أن معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾"عن نور عظيم يخرون له سجداً"[(٣)]، وروي عن أبي موسى ﷺ.

---

(١) إبطال التأويلات لأخبار الصفات ١/١٥٩.

(٢) وانظر: الصواعق المرسلة لابن القيم ١/٢٥٣.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٢/٢٠٠، وذكره السيوطي في الدر ٦/٣٩٧، ونسبه لأبي يعلى وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر.

وهذا الأثر ضعيف لا يثبت عن أبي موسى ﷺ[١].

القول الرابع: أن المعنى: يوم يكشف عن أصل الأمر، وساق الشيء أصله الذي به قوامه، كساق الشجر وساق الإنسان، أي يظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها[٢].

ويجاب بأنه وإن صح من حيث اللغة إطلاق الساق على أصل الأمر؛ فإن السنة وردت مؤيدةً للقول الأول، فيرجح على غيره ويرد ما سواه[٣].

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول وهو أن المراد بالساق في الآية، الصفة الكريمة لله تعالى، فثبتت له تعالى كسائر الصفات الثابتة في الكتاب والسنة من غير تعطيل ولا تكييف ولا تأويل ولا تشبيه، وذلك لدلالة السنة على هذا المعنى، وإذا ثبت الحديث وكان في معنى أحد الأقوال فهو مرجح على ما خالفه[٤].

قال الشوكاني – رحمه الله –: "وقد أغنانا الله – سبحانه – في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء.

دعوا كل قول عند قول محمد ** فما آمنٌ في دينه كمخاطر"[٥]

---

(١) ضعفه جماعة، منهم ابن كثير ٤٥٣/٤، والحافظ في الفتح ٦٦٤/٨.

(٢) ذكره الرازي ٨٤/٣٠، والبيضاوي ٥١٨/٢، قال: "والتنكير للتهويل والعظيم".

(٣) انظر: قواعد الترجيح ٢٠٦/١ – ٢١١.

(٤) قواعد الترجيح عند المفسرين ٢٠٦/١.

(٥) فتح القدير ٣٩٥/٥.

وكأن السعدي – رحمه الله – يجمع بين القولين الأول والثاني، حيث قال: "إذا كان يوم القيامة وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه..."(١).

وهذا الجمع غير مسلّم حيث إن ما ثبت في السنة لا يحتمل معنى القول الثاني كما تقدم.

(١) تفسيره ص٨٨١.

سورة القلم: الآية ٤٨

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام أن معنى قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ اصبر لما يحكم به عليك، وأن الآية محكمة غير منسوخة.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وقد قيل في معناه: اصبر لما يحكم به عليك، وقيل: اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت، والأول أصح، وحكم الله نوعان: خلق وأمر.

فالأول: ما يقدره من المصائب.

والثاني: ما يأمر به وينهى عنه.

والعبد مأمور بالصبر على هذا وعلى هذا فعليه أن يصبر لما أمر به ولما نهى عنه فيفعل المأمور ويترك المحظور وعليه أن يصبر لما قدره الله عليه.

وبعض المفسرين يقول: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهذا يتوجه إن كان في الآية النهي عن القتال فيكون هذا النهي منسوخاً، ليس جميع أنواع الصبر منسوخة؛ كيف والآية لم تتعرض لذلك هنا لا بنفي ولا إثبات، بل الصبر واجب لحكم الله ما زال واجباً، وإذا أمر بالجهاد فعليه أيضاً أن يصبر لحكم الله، فإنه يبتلى من قتالهم بما هو أعظم من كلامهم، ما ابتلي به يوم أحد والخندق،

---

(١) سورة القلم: الآية ٤٨.

وعليه حينئذ أن يصبر ويفعل ما أمر به من الجهاد، والمقصود هنا قوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ فإن ما فعلوه من الأذى هو مما حكم به عليك قدراً فاصبر لحكمه وإن كانوا ظالمين في ذلك"[١].

الدراسة:

في هذه الآية مسألتان:

المسألة الأولى: معنى قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾.

وقد اختلف المفسرون في معناها على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المعنى: اصبر لما يحكم به عليك ربك، واختاره بعض العلماء، وممن اختاره ابن جرير[٢]، والسمرقندي[٣]، وابن عطية[٤]، وشيخ الإسلام – كما تقدم –.

واستدل له شيخ الإسلام بعموم الآية؛ فإن حكم الله تعالى نوعان: خلقٌ وأمر، والعبد مأمور بكليهما، فعليه أن يصبر لما أمر به ولما نهي عنه، وعليه أن يصبر لما قدَّره الله عليه.

وقال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن،

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٢٥/٨، وانظر: ٧٠/١٦.

(٢) تفسيره ٢٠٢/١٢.

(٣) تفسيره ٣٩٦/٣.

(٤) المحرر الوجيز ٨٩/١٦.

وهذا الدين، وامضِ لما أمرك به ربك، ولا يثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تذكيبهم أياك وأذاهم لك"(١).

وقال ابن عطية: "ثم أمر تعالى نبيه بالصبر لحكمه، وأن يمضي لما أمر به من التبليغ واحتمال الأذى والمشقة، ونهى عن الضجر والعجلة التي وقع فيها يونس ﷺ"(٢).

وقال ابن عاشور: "والمراد بحكم الرب هنا أمره، وهو ما حُمِّله إياه من الإرسال والاضطلاع بأعباء الدعوة، وهذا الحكم هو المستقر من آيات الأمر بالدعوة التي أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾(٣) فهذا هو الصبر المأمور به في هذه الآية أيضاً، ولا جرم أن الصبر لذلك يستدعي انتظار الوعد بالنصر، وعدم الضجر من تأخره إلى أمده المقدر في علم الله"(٤).

وقال السعدي: "﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدراً، فالحكم القدري يصبر على المؤذى منه، ولا يُتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي يقابل بالقبول والتسليم والانقياد التام لأمره"(٥).

القول الثاني: أن المعنى: اصبر على أذى المشركين، وإليه ذهب عامة

---

(١) تفسير ابن جرير ٨٩/١٢.

(٢) تفسير ابن عطية ٨٩/١٦.

(٣) سورة المدثر: الآيات ١ – ٧.

(٤) تفسيره ١٠٤/٢٩.

(٥) تفسيره ص٣٨١.

المفسرين، وممن اختاره الفراء[١]، والنحاس[٢]، والواحدي[٣]، والسمعاني[٤]، والبغوي[٥]، وابن الجوزي[٦]، وابن كثير[٧].

وقد ضعّفه شيخ الإسلام – كما تقدم – وذكر أن الصبر على أذى الكفار من جملة ما حكم عليه قدراً، وأُمر به.

قال ابن كثير عند هذه الآية: "يقول الله – تعالى –: فاصبر يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة"[٨].

القول الثالث: أن المعنى فاصبر لنصر ربك.

قال الزمخشري: "﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم"[٩].

وقال أبو حيان: "﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم، وامضِ لما أُمرت به من التبليغ واحتمال الأذى"[١٠].

---

(١) معاني القرآن ١٧٨/٣.

(٢) إعراب القرآن ١٧/٥.

(٣) الوسيط ٣٤١/٤.

(٤) تفسيره ٣١/٦.

(٥) تفسيره ٣٨٤/٤.

(٦) زاد المسير ٧٦/٨.

(٧) تفسيره ٤٣٦/٤.

(٨) تفسيره ٤٣٦/٤.

(٩) الكشاف ١٣١/٤.

(١٠) البحر المحيط ٣١٠/٨.

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول؛ لأنه ظاهر الآية، ولأنه مستلزم للقول الثاني.

المسألة الثانية: هل الآية منسوخة؟.

اختلف المفسرون في ذلك على قولين:

القول الأول: ذهب عامة المفسرين إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، لعدم وجود دليل على نسخها؛ ولأنها لا تعارض نصوصاً أخرى.

القول الثاني: أنها من جملة ما نسخ بآية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾... الآية[1].

واختاره بعض العلماء، وممن اختاره ابن العربي قال: "نسختها آية القتال"[2]، وابن جزي وقال: "﴿فَٱصْبِرْ﴾ يقتضي مسالمة الكفار، نسخت بالسيف"[3].

والراجح – والله تعالى أعلم – ما ذهب إليه عامة المفسرين من أن الآية محكمة غير منسوخة.

والقول بأن آية السيف نسخت جميع الآيات[4] التي فيها الأمر بالصبر على

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥.

(٢) الناسخ والمنسوخ ٣٩٩/٢.

(٣) تفسيره ٤٧٦/٢.

(٤) يرى ابن سلامة في كتابه الناسخ والمنسوخ ص٥١ أن آية السيف نسخت من القرآن مائة وأربعاً وعشرين آية، ويرى ابن جزي في مقدمة تفسيره ١٥/١ أنها ناسخة لمائة وأربعة عشر آية، وانظر: ==

أذى المشركين والعفو عنهم قول مردود، فإنه لا تعارض بين هذه الآيات وآية السيف، بل تُحمل آية السيف على حال قوة المسلمين، وظهورهم، وتحمل آيات الصبر والعفو عن الكفار على حال الضعف.

قال ابن الجوزي: "وقد ذكر من لا فهم له من ناقلي التفسير أن هذه الآية، وهي آية السيف نسخت من القرآن مائة وأربعاً وعشرين آية، ثم صار آخرها ناسخاً لأولها..."(١).

وقال الزركشي: "الثالث: ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها، ثم نسخه إيجاب ذلك، وهذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نَسْءٌ؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾(٢)، فالمُنسأُ هو الأمر بالقتال، إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى.

وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لَهَجَ(٣) به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك، بل هي من المُنْسَأ، بمعنى

==

الناسخ والمنسوخ لابن العربي ٢/٢٤٠، والإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي بن أبي طالب ص٢٦٧، والنسخ في القرآن الكريم لمصطفى زيد ٢/٥٠٧.

(١) نواسخ القرآن ص١٥٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٣) لِهَجَ بالأمر لَهْجاً: أُوله به، فثابر عليه واعتاده. انظر: المعجم الوسيط ٢/٨٤١ مادة (لهج).

أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلّة توجب ذلك الحكـــم، ثم ينتقـــل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً"[١].

(١) البرهان في علوم القرآن ٤٩/٢، وانظر: الإتقان ٦٠/٢.

سورة الحاقة: الآية ٤٠

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالرسول في الآية محمد ﷺ.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وأضافه – يعني القرآن – إلى الرسول البشري في قوله: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢] فنفى عنه أن يكون قول شاعر أو كاهن وهما من البشر، كما ذكر في آخر الشعراء: أن الشياطين تنَزل على كل أفاك أثيم؛ كالكهنة الذين يلقون إليهم السمع، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون، فهذان الصنفان اللذان قد يشتبهان بالرسول من البشر لما نفاهما علم أن الرسول الكريم هو المصطفى من البشر فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، كما أنه في سورة التكوير لما كان الشيطان قد يشبه بالملك – فنفى أن يكون قول شيطان رجيم – علم أن الرسول المذكور هو المصطفى من الملائكة، وفي إضافته إلى هذا الرسول تارة وإلى هذا تارة، دليل على أنه إضافة بلاغ وأداء لا إضافة إحداث لشيء منه أو إنشاء..."[٣].

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٤٠.

(٢) سورة الحاقة: الآيات ٣٨ – ٤٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٥٠/٢، وانظر: مجموع الفتاوى ١٣٧/٢، ٢٧٢/١١، ٥٠/١٢، ١٣٥، ٢٦٥، ٣٠٧، ٢٧٧، ٥٢١، ٥٥٥، ودرء التعارض ٢٥٨/١، ١٨٣/٢، والجواب الصحيح ٢٢٢/٢، ٣١٢/٥، ٤٤٨، والرد على البكري ٦٥٢/٢.

وقال – رحمه الله –: "﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ ﴾[1] فهذا نعت جبريل الذي قال فيه: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[2]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾﴾[3]، وقال: ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾[4]، وقال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[5] فهذه صفة محمد ﷺ"[6].

---

(١) سورة التكوير: الآيات ١٩ – ٢١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٩٧.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٩٣ – ١٩٥.

(٤) سورة النحل: الآيتان ١٠١ – ١٠٢.

(٥) سورة الحاقة: الآية ٤٠ – ٤٧.

(٦) مجموع الفتاوى ٨٢/١٧.

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالرسول في الآية على قولين:

القول الأول: أنه محمد ﷺ؛ وبه قال أكثر المفسرين(١).

قال السمعاني: "فإن قال قائل: كيف قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ وإنما هو قول الله تعالى؟.

والجواب من وجهين: أحدهما: أن معناه تلاوة رسول كريم، والثاني: قول الله، وإبلاغ رسول كريم، فاتسع الكلام، واكتفى بالفحوى"(٢).

واستدلوا بسياق الآية، حيث قال الله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

قال الرازي: "واعلم أنه تعالى ذكر في سورة ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾(٣) مثل هذا الكلام، والأكثرون هناك على أن المراد منه جبريل عليه السلام والأكثرون ههنا على أن المراد منه محمد ﷺ، واحتجوا على الفرق بأن ههنا لما قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة، بل كانوا يصفون محمداً بهذين

---

(١) نسبه للأكثرين ابن الجوزي في زاد المسير ٦٨/٨، وأبو حيان في البحر ٣٢١/٨، وانظر: تفسير ابن جرير ٢٢٢/١٢، والبغوي ٣٩٠/٤، وابن كثير ٤٤٥/٤.

(٢) تفسيره ٤٢/٦، وانظر: تفسير ابن عطية ١٠٣/١٦، والقرطبي ١٧٨/١٧، وابن كثير ٤٤٥/٤، وابن عاشور ١٣١/٢٩.

(٣) سورة التكوير: الآية ١.

الوصفين، وأما في سورة ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ لما قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[١]، ثم قال بعده: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[٢]، كان المعنى: أنه قول ملك كريم، لا قول شيطان رجيم، فصح أن المراد من الرسول الكريم ههنا محمد ﷺ، وفي تلك السورة هو جبريل عليه السلام"[٣].

واستدل له ابن عاشور أيضاً بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾[٤].

القول الثاني: أن المراد به جبريل عليه السلام، وروي عن الحسن والسدي ومقاتل[٥]، واختاره ابن قتيبة[٦]، والسمرقندي[٧]، وابن جزي[٨]، وأجازه ابن عاشور[٩].

---

(١) سورة التكوير: الآية ١٩.

(٢) سورة التكوير: الآية ٢٥.

(٣) تفسير الرازي ١٣٠/٣٠، وبذلك استدل شيخ الإسلام كما تقدم، وأبو حيان ٣٢١/٨، وابن كثير ٤٤٥/٤.

(٤) تفسيره ١٤١/٢٩.

(٥) ذكره عن الحسن القرطبي ١٧٩/١٨، وذكره عن مقاتل والسدي الماوردي ٨٦/٦، وابن الجوزي ٨٦/٨، وأبو حيان ٣٢١/٨.

(٦) غريب القرآن ص ٤٨٤.

(٧) تفسيره ٤٠٠/٣.

(٨) تفسيره التسهيل ٤٨٢/٢.

(٩) تفسيره ١٤٢/٢٩.

واستُدل لهذا القول بآية التكوير وأن المراد بهما واحد[١].

ويناقش بأنه ليس كذلك، فسياق الآيتين يدل على التفريق.

والراجح – والله أعلم – القول الأول لدلالة السياق عليه، ولأنه قول جمهور المفسرين، وتفسير جمهور المفسرين مقدم على كل تفسير شاذ[٢].

(١) ذكره القرطبي في تفسيره ١٨/١٧٩.

(٢) قواعد الترجيح ١/٢٨٨.

سورة الحاقة: الآية ٤٥

قال تعالى: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى الآية: لأخذنا بيده اليمنى، كما يُفعل بمن يهان عند القتل.

قال – رحمه الله –: "قوله: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾، قيل: لأخذنا بيمينه كما يُفعل بمن يُهان عند القتل، فيقال: خذ بيده؛ فيجرُّ بيده، ثم يقتل، فهذا هلاك بعزة وقدرة من الفاعل وإهانة وتعجيل هلاك للمقتول، وقيل: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ أي: بالقوة والقدرة فإن الميامن أقوى ممن يأخذ بشماله، كما قال: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[٢]، وكما قال: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[٣]، لكنه قال: أخذنا منه، ولم يقل لأخذناه، فهذا يقوي القول الأول"[٤].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ على خمسة أقوال:

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٤٥.

(٢) سورة القمر: الآية ٤٢.

(٣) سورة البروج: الآية ١٢.

(٤) النبوات ٢٤٢/١.

القول الأول: أن المعنى: لأخذنا منه باليد اليمنى.

قال ابن جرير – بعد أن حكى هذا القول –: "قالوا: وإنما ذلك كقول ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه، وافعل به كذا وكذا، قالوا: وكذلك معنى قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾: أي لأهناه كالذي يفعل بالذي وصفنا حاله"[(١)].

وقال الزمخشري: "والمعنى: ولو ادّعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذَّب عليهم معاجَلةً بالسخط والانتقام، فصوَّر قتل الصَّبْر بصورته ليكون أهولَ، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته، وخص اليمين عن اليسار؛ لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جِيْده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه، ومعنى ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لأخذنا بيمينه، كما أن قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[(٢)] لقطعنا وتينه[(٣)]، وهذا أبين"[(٤)].

واختار هذا القول بعض العلماء، وممن اختاره الزمخشري[(٥)]، والبيضاوي[(٦)]،

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٢٣/١٢.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤٦.

(٣) الوَتين: عرق الدم، الذي إذا انقطع مات صاحبه. مختار الصحاح ص٣٠٩.

(٤) الكشاف ١٣٧/٤، وانظر: تأويل مشكل القرآن ص١٥٤، وابن جزي ٤٨٢/٢، وابن عاشور ١٤٦/١٩.

(٥) تفسيره ١٣٧/٤.

(٦) تفسيره ٥٢٤/٢.

وشيخ الإسلام كما تقدم، والألوسي[١].

القول الثاني: أن المعنى: لأخذنا منه بالقوة والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب، وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها[٢]؛ وروي عن ابن عباس[٣].

قال ابن قتيبة: "وإنما أقام اليمين مُقام القوة؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه"[٤].

قال الألوسي: "وضُعِّف بأن فيه ارتكاب مجاز من غير فائدة، وأنه يفوت فيه التصوير والتفصيل والإجمال، ويصير منه زائداً لا فائدة فيه"[٥].

واختار أن المراد القوة والقدرة بعض العلماء، وممن اختاره الفراء[٦]، والزجاج[٧]، والواحدي[٨]، وابن عاشور[٩]. واستدلوا لذلك بقول الشاعر[١٠]:

---

(١) تفسيره ٥٤/٢٩.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٢٣/١٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ٤١٣/٦، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص١٥٤.

(٥) تفسير الألوسي ٥٤/٢٩.

(٦) معاني القرآن ١٨٣/٣.

(٧) معاني القرآن وإعرابه ٢٨٣/٥.

(٨) الوسيط ٣٤٩/٤.

(٩) تفسيره ١٤٥/٢٩.

(١٠) هو الشماخ بن ضرار، ديوانه ٩٢، وعرابةُ اسم رجل من الأنصار من الأوس، القرطبي ١٧٨/١٨.

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجد ** تلقاها عرابة باليمين[١]

القول الثالث: أن المعنى: لأخذنا منه بالحق، وروي عن الحكم[٢]، والسدي[٣]، ومقاتل[٤].

قال الثعلبي: "لعاقبناه وانتقمنا منه بالحق، كقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾[٥] أي: من قبل الحق"[٦].

قال الماوردي: ومنه قول الشاعر:

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجد ** تلقاها عرابة باليمين

أي: بالاستحقاق"[٧].

القول الرابع: أن المعنى لأخذنا قوته كلها؛ وروي عن الربيع[٨].

القول الخامس: أن المعنى: لقطعنا يده اليمنى؛ وروي عن الحسن[٩].

---

(١) استدل بذلك الزجاج ٢١٨/٥، وتبعه الكثير من المفسرين.

(٢) ذكره الماوردي ٨٦/٦، والسيوطي في الدر ٤١٣/٦، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره الماوردي ٨٦/٦.

(٤) ذكره عن الرازي ١٠٥/٣٠.

(٥) سورة الصافات: الآية ٢٨.

(٦) تفسيره ٣٢/١٠، وانظر: البغوي ٣٩٠/٤.

(٧) تفسير الماوردي ٨٦/٦، وأكثر المفسرين استدلوا بهذا البيت للقول الثاني، وقالوا: باليمين أي بالقوة، انظر: معاني القرآن للزجاج ٢١٨/٥، وتفسير الثعلبي ٣٢/١٠، والبغوي ٣٩٠/٤، والسمعاني ٤٢/٦.

(٨) ذكره الماوردي ٨٦/٦.

(٩) ذكره عنه الماوردي ٨٦/٦، والقرطبي ١٧٩/١٨.

قال أبو حيان: "والظاهر أن قوله ﴿ بِٱلْيَمِينِ ﴾ المراد به الجارحة، فقال الحسن: المعنى قطَّعناه عبرةً ونكالاً، والباء على هذا زائدة"[1].

والراجح – والله أعلم – القول الأول، لأنه ظاهر الآية، لا يحتاج إلى تأويل، وهو أسلوب معروف عند العرب.

(١) البحر المحيط ٣٢٢/٨.

سورة المعارج: الآية ٢٣

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى قوله تعالى: ﴿ دَآئِمُونَ ﴾ محافظون على أدائها في أوقاتها، مطمئنون في أفعالها.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "والسلف من الصحابة ومن بعدهم قد فسروا الدائم على الصلاة بالمحافظ على أوقاتها وبالدائم على أفعالها بالإقبال عليها، والآية تعم هذا وهذا، فإنه قال: ﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ والدائم على الفعل هو المديم له الذي يفعله دائماً، فإذا كان هذا فيما يفعل في الأوقات المتفرقة: وهو أن يفعله كل يوم بحيث لا يفعله تارة ويتركه أخرى وسمى ذلك دواماً عليه، فالدوام على الفعل الواحد المتصل أولى أن يكون دواماً وأن تتناول الآية ذلك، وذلك يدل على وجوب إدامة أفعالها؛ لأن الله عز وجل ذم عموم الإنسان، واستثنى المداوم على هذه الصفة، فتارك إدامة أفعالها يكون مذموماً من الشارع والشارع لا يذم إلا على ترك واجب أو فعل محرم.

وأيضاً: فإنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[٢]، فدل ذلك على أن المصلي قد يكون دائماً على صلاته وقد لا يكون دائماً عليها، وأن المصلي الذي ليس بدائم مذموم، وهذا يوجب

---

(١) سورة المعارج: الآية ٢٣.

(٢) سورة المعارج: الآيتان ٢٢ – ٢٣.

ذم من لا يديم أفعالها المتصلة والمنفصلة، وإذا وجب دوام أفعالها فذلك هو نفس الطمأنينة، فإنه يدل على وجوب إدامة الركوع والسجود وغيرهما، ولو كان المجزئ أقل مما ذكر من الخفض - وهو نقر الغراب - لم يكن ذلك دواماً، و لم يجب الدوام على الركوع والسجود وهما أصل أفعال الصلاة؛ فعلم أنه كما تجب الصلاة يجب الدوام عليها المتضمن للطمأنينة والسكينة في أفعالها"[١].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ على أربعة أقوال:

القول الأول: أن المعنى: أنهم يداومون على أدائها، ويواظبون عليها[٢].

قال ابن جرير: "إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون، لا يضيِّعون منها شيئاً، فأولئك غير داخلين في عداد من خلق هلوعاً، وهو مع ذلك بربه كافر لا يصلي"[٣].

وقال الزمخشري: "فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، ثم ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٤]، قلت: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/٥٥٢.

(٢) نسبه ابن عطية في تفسيره ١٦/١١٣، و أبو حيان ٨/٣٢٩ للجمهور.

(٣) تفسيره ١٢/٢٣٤.

(٤) سورة المعارج: الآية ٣٤.

إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها"[١].

وقال ابن عطية: "قال الجمهور المعنى: مواظبون قائمون لا يملُّون في وقت من الأوقات فيتركونها، وهذا في المكتوب، وأما النافلة فالدوام عليها الإكثار منها بحسب الطاقة"[٢].

وقال ابن عاشور: "أي: مواظبون على صلاتهم لا يتخلفون عن أدائها ولا يتركونها. والدوام على الشيء: عدم تركه، وذلك كل عمل بحسب ما يعتبر دواماً فيه"[٣].

وإلى هذا القول ذهب جمهور المفسرين، واختاره ابن جرير والزمخشري وابن عطية وابن عاشور كما تقدم، والبيضاوي[٤]، والشوكاني[٥]، والألوسي[٦]، والقاسمي[٧].

القول الثاني: أن المعنى: يحافظون على مواقيتها؛ وبه قال ابن مسعود ﷺ[٨]، ومسروق[٩].

---

(١) تفسيره ١٤٠/٤ بتصرف واختصار، وبنحوه قال الرازي ١١٤/٣٠، وانظر: تفسير ابن جزي ٤٨٧/٢، وأبي حيان ٣٢٩/٨، وابن عاشور ١٧٤/٢٩.

(٢) تفسيره ١١٣/١٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٧١/٢٩.

(٤) تفسيره ٥٢٧/٢.

(٥) تفسيره ٤١٧/٥.

(٦) روح المعاني ٦٣/٢٩.

(٧) تفسيره ٢٨٩/١٦.

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢٠٨/١.

(٩) ذكره في الدر المنثور ٤٢٠/٦، وعزاه لعبد بن حميد.

القول الثالث: أن المعنى: لا يلتفتون فيها، قال عقبة بن عامر ﷺ عند هذه الآية: "هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا خلفهم، ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم"(١).

وروي هذا القول عن عمران بن حصين ﷺ(٢).

قال الزجاج: "ويجوز أن يكون الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة، ولا يلتفتون، فيكون اشتقاقه من الدائم، وهو الساكن كما جاء النهي عن البول في الماء الدائم"(٣).

القول الرابع: أن المعنى: يكثرون فعل التطوع منها؛ وبه قال الحسن(٤)، وابن جريج(٥).

وهذا يخالف ما روي عن إبراهيم النخعي من طرق أن المراد بها المكتوبة(٦).

والأظهر - والله أعلم - القول الأول - قول جمهور المفسرين - وأن المراد بذلك المواظبة على أدائها، وأما القول الثاني، وهو ما روي عن ابن مسعود ﷺ ومسروق فالظاهر لي أنه بمعنى القول الأول فيكون مرادهم: المواظبةَ على أدائها

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٢/٢٣٥، وابن أبي حاتم ١٠/٣٣٧٤، والثعلبي ١٠/٤٠.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١/٣٩٦، وزاد السيوطي في الدر ٦/٤٢٠ عزوه لابن المنذر.

(٣) معاني القرآن ٥/٢٢٢، وانظر: الوسيط للواحدي ٤/٣٥٣، وزاد المسير ٨/٩٤ فقد نصّا على أنه اختاره.

(٤) ذكره عنه القرطبي ١٨/١٨٨.

(٥) ذكره عنه الماوردي ٦/٩٥، والقرطبي ١٨/١٨٨.

(٦) أخرجه ابن جرير ١٢/٢٣٥، وعبد بن حميد، انظر: الدر ٦/٤٢٠.

في مواقيتها.

وأما السكون فيها وعدم الالتفات فهو داخل في المحافظة عليها المذكورة في الآية الثانية ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري ومن تبعه وتقدم ذكر كلامه(١).

وقال الألوسي: "ولعل ترك الالتفات، والأداء في الوقت يتضمنه ما يأتي من المحافظة"(٢).

وأما ما ذهب إليه شيخ الإسلام من أن المراد العموم: المواظبة على أدائها في أوقاتها والسكينة في أفعالها فهو قول وجيه، وتحتمله الآية، واختاره السعدي(٣)؛ ولكن لّما ذكر الله تعالى بعد هذه الآية أن من صفات هؤلاء المذكورين أنهم على صلاتهم يحافظون، كان حمل كل آية على معنى أولى.

---

(١) وقال الطبري عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ ٢٣٩/١٢: "يقول: والذين هم على مواقيت صلاتهم التي فرضها الله عليهم وحدودها التي أوجبها عليهم يحافظون ولا يضيعون لها ميقاتاً ولا حداً".

(٢) تفسير الألوسي ٦٣/٢٩.

(٣) تفسيره ص٨٨٧، فقال: "مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكمّلاتها".

سورة الجن: الآية ٤

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾[١].

اختار شيخ الإسلام، أن المراد بالسفيه في الآية، السفيه من الجن.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "أي: السفيه منا، في أظهر قولي العلماء"[٢].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالسفيه[٣] في الآية على قولين:

القول الأول: أنه السَّفيه من الجن، وهو العاصي المتمرد منهم؛ قاله مقاتل[٤].

وقال قتادة: "عصاه والله سفيهُ الجن، كما عصاه سفيه الإنس"[٥]، وظاهر كلام ابن جرير أن قتادة أراد بالسفيه هنا إبليس[٦].

---

(١) سورة الجن: الآية ٤.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٠٤/١١.

(٣) قال النحاس في الإعراب ٤٧/٥: "السفة رقة الحلم، ثوب سفيه أي رقيق". وقال الرازي في تفسيره ١٦٧/٣٠: "السفه خفة العقل، والشّطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره"، وانظر: مختار الصحاح ص١٣٧ مادة (سفه).

(٤) ذكر عن ابن الجوزي ١٠٥/٨ أنه قال: "كافرهم".

(٥) أخرجه ابن جرير ٢٦٢/١٢.

(٦) انظر: تفسير ابن جرير ٢٦٢/١٢.

واختار هذا القول بعض العلماء، وممن اختاره ابن عطية[١]، والبقاعي[٢]، والقاسمي[٣].

قال ابن عطية: "وقال آخرون: هو اسم جنس لكل سفيه منهم، ولا محالة أن إبليس صَدْرٌ في السفهاء، وهذا القول أحسن"[٤].

وقال الألوسي: "وقيل: مَرَدَة الجن، والإضافة للجنس، والمراد سفهاؤنا"[٥].

وقال البقاعي: "﴿سَفِيهُنَا﴾ الجنس، فيتناول إبليس رأس الجنس تناولاً أولياً، وكل من تبعه ممن لا يعرف الله؛ لأن ثمرة العقل العلم، وثمرة العلم معرفة الله، فمن لم يعرفه فهو الذي يلازم الطيش والغي"[٦]. ويفهم من كلامه أنه يدخل سفهاء الإنس، وهذا مخالف لظاهر الآية.

القول الثاني: أنه إبليس؛ وبه قال مجاهد، وقتادة[٧]، وعكرمة والسدي[٨]، وابن جريج[٩].

وقد روي عن أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعاً، ولكنه ضعيف[١٠].

---

(١) تفسيره ١٣٣/١٦.
(٢) نظم الدرر ٤٦٩/٢٠.
(٣) تفسيره ٣٠١/١٦.
(٤) المحرر الوجيز ١٣٧/٣٠.
(٥) تفسيره ٨٥/٢٩.
(٦) نظم الدرر ٤٦٩/٢٠.
(٧) أخرجه ابن جرير ٢٦٢/١٢، وذكره عن مجاهد ابن أبي حاتم ٣٣٧٧/١٠.
(٨) ذكره عنهما ابن كثير ٤٥٧/٤.
(٩) ذكره عنه القرطبي في تفسيره ٨/١٩.
(١٠) ذكره السيوطي في الدر ٤٣٠/٦، وعزاه لابن مردويه والديلمي بسند واه.

واختار هذا القول بعض العلماء، وممن اختاره ابن جرير[١]، والبغوي[٢]، وعزاه الألوسي[٣] للجمهور.

والأظهر - والله تعالى أعلم - القول الأول وأن المراد بالسفيه في الآية كل عاص متمرد من الجن، ومن قال من السلف إنه إبليس فيحمل على أنه أراد التمثيل لا التخصيص، وتقدم قول ابن عطية: "ولا محالة أن إبليس صدرٌ في السفهاء".

(١) تفسيره ٢٦٢/١٢.
(٢) معالم التنْزيل ٤٠١/٤.
(٣) تفسيره ٨٥/٢٩.

سورة المزمل: الآية ٦

قال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن المراد بناشئة الليل: القيام بعد النوم.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وناشئة الليل في أصح القولين: إنما تكون بعد النوم، يقال: نشأ إذا قام بعد النوم؛ فإذا قام بعد النوم كانت مواطأة قلبه للسانه أشدَّ لعدم ما يشغل القلب، وزوال أثر حركة النهار بالنوم، وكان قوله أقومَ"[٢].

الدراسة:

قال السمين الحلبي مبيناً معنى الناشئة في اللغة، واشتقاقها: "في الناشئة أوجه:

أحدها: أنها صفة لمحذوف، أي النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها للعبادة، أي تنهض وترتفع.

الثاني: أنها مصدر بمعنى قيام الليل، على أنها مصدر من نشأ: إذا قام ونهض، فتكون كالعافية.

الثالث: أنها بلغة الحبشة، نشأ الرجل، أي قام من الليل؛ فهي جمع ناشئ، أي: قائم، يعني أنها صفة لشيء يُفهم الجمعَ، أي طائفة أو فرقة ناشئة.

الرابع: أن ناشئة الليل: ساعاته، لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء، وقيدها ابن

---

(١) سورة المزمل: الآية ٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٩٥/٢٢، وانظر: ٤٧٤/١٧، ٨٧/٢٣.

عباس والحسن بما بعد العشاء"[١].

وقد روى ابن مسعود[٢]، وابن عباس[٣] ﷺ أن ﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ قيام الليل بلسان الحبشة.

واختلف المفسرون في المراد بـ﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ المذكورة في الآية على خمسة أقوال:

القول الأول: أنها جميع الليل، فجميع ساعات الليل تسمى ناشئة، فالقيام في أي ساعة من ساعاته يسمى ناشئة؛ وبه قال ابن عباس، وابن الزبير ﷺ، ومجاهد، وعكرمة، وابن زيد والضحاك وأبو نجيح[٤].

واختار هذا القول أهلُ اللغة وجمهور المفسرين، وممن اختاره مالك[٥]، والفراء[٦]، وابن قتيبة والزجاج كما سيأتي، وابن جرير[٧]، والسمرقندي[٨]،

---

(١) الدر المصون: ٥١٧/١٠، بتصرف واختصار، وانظر: تفسير الزمخشري ١٥٣/٤، والرازي ١٥٥/٣٠، وأبي حيان ٣٥٤/٨.

(٢) أخرجه الحاكم ٥٠٥/٢، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي حاتم ٣٣٨٠/١٠.

(٣) أخرجه عنه ابن جرير ٢٨٢/١٢، والبيهقي في السنن ٣٠/٣.

(٤) أخرجه عنهم ابن جرير ٢٨٢/١٢ - ٢٨٣، وعلقه ابن أبي حاتم ٣٣٨٠/١٠ عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ، وأخرجه الثعلبي ٦١/١٠ عنهما - رضي الله عنهما - وذكره عن سعيد بن جبير وابن زيد، وانظر: الدر المنثور ٤٤٤/٦.

(٥) ذكره عنه ابن العربي في أحكام القرآن ١٨٧٧/٤.

(٦) معاني القرآن ١٩٧/٣.

(٧) تفسيره ٢٨٢/١٢.

(٨) تفسيره ٤١٦/٣.

والواحدي[١]، والبغوي[٢]، وشيخ الإسلام كما تقدم، وابن القيم[٣]، وابن كثير[٤]، والقرطبي[٥].

قال ابن قتيبة: "﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ وهي آناؤه وساعاته، مأخوذة من نَشَأَتْ تَنْشأ نشئاً، نشأت أي: ابتدأت، وأقبلت شيئاً بعد شيء... فكأنه قال: إن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف من الاسم"[٦].

وقال الزجاج: "﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ ساعات الليل كلها، كلما نشأ منه، أي: كل ما حدث منه فهو ناشئة"[٧].

وقال ابن العربي: "وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة"[٨].

القول الثاني: أن ناشئة الليل ما بين المغرب والعشاء.

وروي عن أنس بن مالك ﷺ[٩]، وسعيد بن جبير[١٠]، وعلي بن

---

(١) الوسيط ٣٧٣/٤.

(٢) تفسيره ٤٠٨/٤.

(٣) شفاء العليل ص١٣٣.

(٤) تفسيره ٤٦٤/٤.

(٥) تفسيره ٢٧/١٩.

(٦) تأويل مشكل القرآن ص٣٦٥.

(٧) معاني القرآن وإعرابه ٢٤٠/٥.

(٨) أحكام القرآن ١٨٧٧/٤.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٥/٢، ومحمد بن نصر في قيام الليل، المختصر ص٨٦، والبيهقي في سننه ٢٩/٣ [ت محمد عبدالقادر عطا].

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٥/٢، والثعلبي ٦١/١٠.

الحسين[١]، وابن المنكدر[٢] وأبي حازم[٣] [٤].

وروي عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ أنهما قالا: "أول الليل بعد المغرب"[٥].

وعن عكرمة أنه قال: "ما قمت من أول الليل فهو ناشئة"[٦].

وعن عطاء: "بدء الليل"[٧]، قالوا: لأن ناشئة الليل هي الساعة التي يبتدأ فيها سواد الليل[٨]، واختار هذا القول الكسائي[٩] [١٠].

القـــول الثالث: أنها القيام بعد النوم، وروي عن عائشة – رضي الله عنها[١١]،

---

(١) أخرجه ابن نصر في المختصر ص٨٧، والبيهقي في السنن ٣٠/٣.

(٢) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدَيِّر القرشي التيمي المدني، زاهد من رجال الحديث، أدرك بعض الصحابة وروى عنهم، ولد سنة ٥٤هـ، وتوفي سنة ١٣٠هـ. انظر: تاريخ الإسلام ٥٣٣/٨، وتهذيب التهذيب ٤٧٣/٩.

(٣) هو سلمة بن دينار المخزومي، أبو حازم، ويقال له: الأعرج، عالم المدينة وقاضيها، توفي سنة ١٤٠هـ. انظر: حلية الأولياء ٢٢٩/٣، وتهذيب التهذيب ١٤٣/٤.

(٤) أخرجه عنهما ابن نصر في قيام الليل، المختصر ص٨٦.

(٥) أخرجه عنهما البيهقي في السنن ٢٩/٣.

(٦) ذكره عنه الثعلبي في تفسيره ٦١/١٠، والماوردي ١٢٧/٦.

(٧) ذكره عنه الماوردي ١٢٧/٦.

(٨) انظر: تفسير الرازي ١٥٥/٣٠.

(٩) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن، إمام في اللغة والقراءة، توفي سنة ١٨٩هـ، من مؤلفاته: معاني القرآن، والمتشابه في القرآن. انظر: تاريخ بغداد ٤٠٣/١١، وغاية النهاية ٥٣٥/١.

(١٠) انظر: البحر ٣٥٤/٨.

(١١) ذكره عنها الثعلبي ٦١/١٠، والزمخشري ١٥٣/٤، والقرطبي ٢٨/١٩.

واختاره ابن الأعرابي[١] [٢]، والإمام أحمد[٣]، والزمخشري[٤]، والسعدي[٥].

قال ابن عاشور: "ووصف الصلاة بالناشئة؛ لأنها أنشأها المصلى فنشأت بعد هدأة الليل فأشبهت السحابة التي تنشأ من الأفق بعد صحوه، وإذا كانت الصلاة بعد النوم فمعنى النشء فيها أقوى، ولذلك فسرتها عائشة بالقيام بعد النوم"[٦].

القول الرابع: أنها ما بعد العشاء؛ وبه قال أبو مِجْلَزَ[٧]، وأبو رجاء[٨]، والحسن[٩]، وقتادة[١٠].

---

(١) هو أبو عبد الله، محمد بن زياد الكوفي، كان إليه المنتهى في معرفة لسان العرب، توفي بسامراء سنة ٢٣١هـ، من مؤلفاته: كتاب النوادر، وأسماء الخيل. انظر: شذرات الذهب ٧٠/٢، والأعلام ١٣١/٦.

(٢) كما ذكر ذلك ابن الجوزي في زاد المسير ١١٤/٨، والسمعاني في تفسيره ٧٨/٦ وغيرهما.

(٣) كما ذكره ابن الجوزي ١١٤/٨.

(٤) تفسيره ١٥٣/٤.

(٥) تفسيره ص٨٩٣.

(٦) التحرير والتنوير ٢٦٢/٢٩.

(٧) هو لاحق بن حميد بن سعيد السدوسي البصري، أبو مِجْلَز، مشهور بكنيته، أحد علماء البصرة، لحق كبار الصحابة، توفي سنة ١٠٦هـ. انظر: تقريب التهذيب ص٥٨٦، وشذرات الذهب ١٣٤/١.

(٨) هو الإمام الكبير شيخ الإسلام، عمران بن ملحان التميمي البصري، أبو رجاء العطاردي، من كبار المخضرمين، أسلم بعد الفتح ولم ير النبي ﷺ، توفي سنة ١٠٧هـ أو ١٠٥هـ عن مائة وعشرين عاماً. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٥٣/٤، وشذرات الذهب ١٣٠/١..

(٩) أخرجه البيهقي ٢٩/٣، وانظر: الدر ٤٤٤/٦.

(١٠) أخرجه عنهم ابن جرير ٢٨٣/١٢، وانظر: الدر ٤٤٤/٦، وأخرجه عن أبي مجلز البيهقي ٣٠/٣.

القول الخامس: أنها القيام من آخر الليل؛ وروي عن يمان[١] وابن كيسان[٢].

ولعل هذا القول بمعنى القول الثالث؛ إذ القيام بعد النوم يقع في آخر الليل غالباً.

هذا ولم يظهر لي رجحان شيء من الأقوال، وذلك لاختلاف السلف وأهل اللغة في تفسير الناشئة، والله أعلم.

---

(١) هويمان بن المغيرة البصري، أبوحذيفة ضعيف الحديث، مات بعد الستين ومائة. انظر تهذيب التهذيب ٤٠٦/١١، والتقريب ص ٦١٠ رقم (٧٨٥٤)

(٢) ذكره عنهما الثعلبي ٦١/١٠، وابن الجوزي ١١٤/٨.

سورة المدثر: الآية ٤

قال تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن طهارة الثياب في الآية تشمل نوعي الطهارة طهارة النفس، وطهارة الملابس.

قال – رحمه الله –: "وقد استدل كثير من المتأخرين من أصحابنا وغيرهم، على وجوب تطهير الثياب بقوله سبحانه: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ حملاً لذلك على ظاهر اللغة التي يعرفونها فإن الثياب هي الملابس، وتطهيرها بأن تصان عن النجاسة، وتجنبها بتقصيرها، وتبعيدها منها، وبأن تماط منها النجاسة إذا أصابتها، وقد نُقل هذا عن بعض السلف، لكن جماهير السلف فسّروا هذه الآية بأن المراد: زكِّ نفسك، وأصلح عملك، قالوا: وكنّي بطهارة الثياب عن طهارة صاحبها من الأرجاس والآثام، ثم ذكر الأدلة على هذا الرأي وهي إجمالاً كما يلي:

١ – أن هذه الآية في سورة المدثر، وهي أول ما أنزل من القرآن بعد أول سورة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، ولعل الصلاة لم تكن فرضت حينئذٍ، فضلاً عن الطهارة التي هي من توابعها.

٢ – أن هذه الطهارة من فروع الشريعة وتتماتها، فلا تفرض إلا بعد استقرار الأصول والقواعد كسائر فروع الشريعة، ثم إن الاهتمام في أول الأمر

---

(١) سورة المدثر: الآية ٤.

بجمل الشرائع، وكلياتها دون تفاصيلها وجزئياتها، وهو المعروف من طريقة القرآن.

٣ – أن ثياب النبي ﷺ لم تعرض لها نجاسة، إلا أن تكون في الأحيان، فتخصيصها بالذكر دون طهارة البدن وغيره مع قلة الحاجة في غاية البعد.

٤ – أن حمل الآية على الطهارة من الرجس، والإثم، والكذب، والغدر، والخيانة، والفواحش تكون قاعدةً عظيمة من قواعد الشريعة.

٥ – أن الكناية بطهارة الثياب عن طهارة صاحبها من الفواحش والكذب، والخيانة ونحوها، مشهور في لسان العرب، غالب في عرفهم نظماً ونثراً، حتى صار حقيقة عرفّية".

ثم قال: "والأشبه – والله أعلم – أن الآية تعّم نوعي الطهارة، وتشمل هذا كله، فيكون مأموراً بتطهير الثياب المتضمنة تطهير البدن والنفس، من كل ما يُستقذر شرعاً، من الأعيان والأخلاق، والأعمال؛ لأن تطهيرها أن تجعل طاهرة، ومتى اتصل بها وبصاحبها شئ من الأنجاس لم تكن مطهرةً على الإطلاق، فإنها متى أُزيل عنها نَجَس دون نَجس لم تكن قد طُهِّرت،حتى يزال عنها كل نَجس، بل كل ما أمرَ الله باجتنابه من الأرجاس وجب التطهر منه، وهو داخل في عموم هذا الخطاب"[1].

---

(١) شرح العمدة، الصلاة ص٤٠٤، بتصرف واختصار، وانظر: جامع المسائل ٤/٢٢٥، ومختصر الفتاوى المصرية ص١٧٣ ط٢، والاختبارات الفقهية للبعلي ص١.

الدراسة:

اختلف المفسّرون في معنى هذه الآية على أقوال سبعة:

القول الأول: أن المعنى: وعَمَلك فأصلح، وبه قال مجاهد[١]، وقال أبو رَزِين[٢] -: "وكان الرجل إذا كان خبيث العمل، قالوا: فلان خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل قالوا: فلان طاهرُ الثياب"[٣].

القول الثاني: أن المعنى: لا تلبس ثيابك من مكسب غيرِ طيب، وقد رُوي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال عند هذه الآية: "لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية"[٤].

القول الثالث: أن المعنى: اغسلها بالماء، وطهرها من النجاسة؛ وبه قال محمد بن سيرين[٥]، وابن زيد[٦].

واختاره الشوكاني وقال: "المراد بها الثياب الملبوسة، على ما هو المعنى

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٩٩/١٢، وأخرج عنه أنه قال: "لست بكاهن ولا ساحر، فأعرض عما قالوا"، وانظر: الدر ٤٥١/٦ – ٤٥٢.

(٢) هو مسعود بن مالك الأسدي الكوفي، ثقة فاضل، مات سنة ٨٥، انظر تهذيب التهذيب ١١٨/١٠، والتقريب ص ٥٢٨..

(٣) أخرجه ابن جرير ٢٩٩/١٢، وانظر: الدر ٤٥١/٦.

(٤) أخرجه ابن جرير ٢٩٩/١٢، وعزاه في الدر ٤٥١/٦ أيضاً لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٥) أخرجه ابن جرير ٣٠٠/١٢.

(٦) أخرجه ابن جرير ٣٠٠/١٢.

اللغوي، أمره – سبحانه – بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات، وإزالة ما وقع فيها منها، وهذا أولى لأنه المعنى الحقيقي، وليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق، وليس مثل هذا الأصل، أعني الحملَ على الحقيقة عند الإطلاق خلاف"[١].

القول الرابع: أن المعنى: لا تلبس ثيابك على معصية ولا على غدره؛ ورُوي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – واستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفي رضي الله عنه[٢]:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر ** لبستُ ولا من غَدرة أتقنَّعُ[٣]

ورُوي أيضاً عن إبراهيم النخعي[٤]، عكرمة[٥]، وقتادة، وقال: "كانت العرب تسمي الرجل إذا نكث و لم يفِ بعهده أنه دَنسِ الثياب، وإذا وفَّى وأصلح قالوا: مطهَّرالثياب"[٦]، وروي هذا القول أيضاً عن الضحاك، وعطاء[٧].

---

(١) تفسيره ٤٦١/٥.

(٢) هو غيلان بن سلمة الثقفي، أحد وجوه ثقيف، أسلم بعد فتح الطائف،وتوفي في آخر خلافة عمر. انظر الإصابة ١٩٢.

(٣) أخرجه ابن جرير ٢٩٨/١٢ – ٢٩٩ من طرق، وفي بعض الروايات عنه: "من الذنوب"، وفي بعضها: "من الإثم"، وانظر: الدر المنثور ٤٥١/٦.

(٤) أخرجه ابن جرير ٢٩٩/١٢.

(٥) أخرجه ابن جرير ٢٩٨/١٢.

(٦) أخرجه ابن جرير ٢٩٩/١٢.

(٧) أخرجه عنهما عبد الرزاق ٣٦١/٣ [ط محمود]، وابن جرير ٢٩٩/١٢.

قال ابن قتيبة عن هذه الآية: "أي طهِّر نفسك من الذنوب، فكنَّى عن الجسم بالثياب، لأنها تشتمل عليه"وذكر شواهد من كلام العرب وأشعارهم في التعبير عن النفس بالثوب والإزار(١).

وقال ابن عطية: "وقال الجمهور: هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس والعرض"(٢).

وهذا القول بمعنى القول الأول.

القول الخامس: أن المعنى: وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب، والعرب تسمي الأهل ثوباً ولباساً وإزاراً(٣).

القول السادس: أن المعنى: وخُلُقَك فحسِّن؛ قاله الحسن(٤).

القول السابع: أن المعنى: وثيابك فقصِّر؛ وروي عن طاووس(٥).

وعند التأمل في هذه الأقوال نرى أنها ترجع إلى قولين:

أحدهما: تطهير النفس والعمل.

والثاني: تطهير الثياب الملبوسة.

وشيخ الإسلام يرى أن المقصود بها أصلاً النوع الأول وهو تطهير العمل،

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٤٢ – ١٤٣.

(٢) تفسير ابن عطية ١٥٥/١٦.

(٣) انظر: تفسير الثعلبي ٦٩/١٠، والماوردي ١٣٦/٦، والقرطبي ٤٢/١٩ – ٤٤.

(٤) ذكره في الدر ٤٥٢/٦، وعزاه لابن المنذر، وانظر: تفسير الثعلبي ٦٩/١٠، وابن الجوزي ١٢١/٨، وابن كثير ٤٧٠/٤.

(٥) ذكره عنه الثعلبي ٦٩/١٠، والماوردي ١٣٧/٦، وابن الجوزي ١٢١/٨.

ولكنها تشمل النوع الثاني بالاستلزام.

وقبله ابن العربي فقد جعل الخلاف في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنه أراد نفسك فطهِّر، والثاني: أن المراد به الثياب الملبوسة، وقال: "ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز"[(١)].

ووافقهم ابن القيم أيضاً حيث يرى أن الآية تعمُّ كل ما قيل فيها وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، وإن لم تتناول ذلك لفظاً، فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، وإن كان المأمور به طهارةَ الثوب، وكونها من مكسب طيب فهو تمام طهارة القلب وكمالها[(٢)].

واختار السعدي أيضاً أنها تشمل النوعين: الأعمال، والثياب المعروفة[(٣)]، وهذا هو الظاهر – والله أعلم –؛ لأنه إذا أمكن حَمْل الآية على جميع معانيها فهو أولى.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٨٨٧/٤.

(٢) إغاثة اللهفان ٥٢/١.

(٣) تفسيره ص٨٩٥.

سورة القيامة: الآية ٢

قال تعالى: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن المراد بالنفس اللوامة نفسُ كل إنسان.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وهي نفس الإنسان.

وقد قيل: إن النفس تكون لوامة وغير لوامة، وليس كذلك، بل نفس كل إنسان لوامة؛ فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وإما في الآخرة"[٢].

وقال ابن القيم: "قال شيخنا: والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقاً، فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾[٣] فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره، ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾[٤]،

---

(١) سورة القيامة: الآية ٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٦٤/٤، ومراده بذلك النفس اللوامة المذكورة في الآية، وإلا فقد ذكر في مواضع أخرى ما ذكره العلماء من أن النفوس ثلاثة أنواع: الأمارة بالسوء، والمطمئنة، واللوامة، وهي التي تذنب وتتوب، ففيها خير وشر، لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت، فتسمى لوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على الذنوب، ولأنها تتلوم أي تتردد بين الخير والشر. انظر: مجموع الفتاوى ٢٩٤/٩، ٦٣٢/١٠، ١٤٨/٢٨.

(٣) سورة الشمس: الآيتان ٧ – ٨.

(٤) سورة القلم: الآيتان ٣٠ – ٣١.

وقال تعالى: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾[١] فهذا اللوم غير محمود، وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى: "أتلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن أُخلق؟"فحجَّ آدمُ موسى، فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾[٢]، وعلى جزائها كقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[٣]، وعلى تباين عملها كقوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾[٤]، وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك"[٥].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالنفس اللوامة في الآية على أقوال ثلاثة:

القول الأول: أنها جميع النفوس، وروي عن الحسن أنه قال: "ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة"[٦].

قال الفراء: "ليس من نفس برّةٍ ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت، وإن كانت عملت سوءاً قالت: ليتني قصرت،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢) سورة العاديات: الآية ٦.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩٢.

(٤) سورة الليل: الآية ٤.

(٥) التبيان ص١٤.

(٦) ذكره ابن كثير ٤/٤٧٧.

ليتني لـــم أفعل"[١].

وقال الزجاج: "والنفس اللوامة تفسيرها: أن كل نفس تلوم صـــاحبها في الآخرة؛ إن كان عمل شراً لامته نفسه، وإن كان عمل خيراً لامته على تـــرك الاستكثار منه"[٢].

وعلى هذا فالمراد جنس النفس الشاملة للتقية والفاجرة.

واستدل له بحديث: "ليس من نفس برةٍ ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يـــوم القيامة، إن عملت خيراً قالت: كيف لم أزد منه، وإن عملت شراً قالت: ليتني قصرت"[٣].

وقال السعدي: "وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سميت لوامة لكثـــرة تردُّدها وتلوِّمها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند المـــوت تلـــوم صاحبها على ما عملت"[٤].

وقال ابن القيم بعد أن ذكر الأقوال في النفس اللوامة: "وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة، لكن اللوامة نوعان: لوامة ملومة، وهي النفس الجاهلـــة الظالمـــة الـــتي يلومهـــا الله وملائكته، ولوامة غير ملومة، وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصـــيره في طاعة الله، مع بذله جهده، فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/٢٠٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/٢٥١.

(٣) استدل به الألوسي ٢٩/١٣٦، ولم أقف عليه مرفوعاً ولا موقوفاً.

(٤) تفسيره ص٨٩٨.

في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها و لم تلم نفسها و لم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عز وجل"[١].

وهو ظاهر اختيار ابن جرير، حيث قال – بعد أن ذكر أقوال السلف-: "وهذه الأقوال التي ذكرناها عمّن ذكرناها عنه وإن اختلفت بها ألفاظ قائليها فمتقاربات المعاني، وأشبه القول في ذلك بظاهر التنْزيل أنها تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات"[٢].

واختاره بعض العلماء، وممن اختاره شيخ الإسلام ووافقه ابن القيم والسعدي كما تقدم، والشوكاني[٣]، وهو قول الفراء والزجاج كما مضى.

القول الثاني: أنها النفس المؤمنة.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: "هي النفس اللؤوم"[٤].

وقال – أيضاً –: "تندم على ما فات، وتلوم عليه"، وقال ﷺ: "التي تلوم على الخير والشر، تقول: لو فعلت كذا وكذا"[٥]، وقيل: إنها النفس المتَّقية التي تلوم النفوس يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى[٦]. وروي عن مجاهد مثله[٧].

---

(١) الروح ص٢٦٢.
(٢) تفسيره ٣٣٧/١٢.
(٣) فتح القدير ٤٧٧/٥.
(٤) أخرجه ابن جرير ٣٢٧/١٢.
(٥) ذكره السيوطي في الدر ٤٦٣/٦، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٦) تفسير الرازي ١٩١/٣٠، وأبي حيان ٣٧٥/٨.
(٧) أخرجه ابن جرير ٣٢٧/١٢.

وقال عكرمة وسعيد بن جبير: "تلوم على الخير والشر"(١).

وقال الحسن: "إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديثي نفسي، ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قُدماً ولا يعاتب نفسه"(٢).

وقال الزمخشري: "النفس المتَّقية التي تلوم النفوس فيه، أي في يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى، أو التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان"(٣).

وقال السمعاني: "الأصح: أنها المؤمنة تلوم نفسها على ما تفعل من المعاصي"(٤).

وقال ابن جزي: "هي التي تلوم نفسها على فعل الذنوب أو التقصير في الطاعات، فإن النفوس على ثلاثة أنواع، فخيرها النفس المطمئنة، وشرها النفس الأمارة بالسوء، وبينهما النفس اللوامة"(٥).

قال ابن عاشور: "وتعريف (النفس) تعريف الجنس، أي الأنفس اللوامة،

---

(١) أخرجه عنهما ابن جرير ٣٢٧/١٢، كما أخرجه عن عكرمة ابن أبي حاتم ٣٣٨٦/١٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٦٤/٦، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(٣) الكشاف ١٦٣/٤، بتصرف يسير.

(٤) تفسيره ١٠٢/٦.

(٥) تفسير ابن جزي ٥١٢/٢.

والمراد نفوس المؤمنين، ووصف اللوامة مبالغة؛ لأنها تكثر لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة، وهذا اللوم هو المعبَّر عنه في الاصطلاح بالمحاسبة، ولومها يكون تفكيرها وحديثها النفسي"[١].

وقال ابن عطية: "وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة، ولا بالأمارة بالسوء فإنها لوامة في الطرفين، مرة تلوم على ترك الطاعة، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي، فإذا اطمأنت خلصت وصفت"[٢].

وعلى هذا القول هي صفة مدح، وهي اسم فاعل بمعنى اللائمة[٣]، واختار هذا القول بعض العلماء، وممن اختاره السمعاني، وابن عطية، والزمخشري، وابن جزي، وابن عاشور كما تقدم.

القول الثالث: أنها المذمومة، وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما[٤] وعن قتادة: "الفاجرة"[٥].

قال ابن الجوزي: "فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم"[٦].

وعلى هذا القول هي صفة ذم، وهي اسم مفعول بمعنى الملومة[٧].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٨/٢٩.

(٢) تفسيره ١٧٢/١٧.

(٣) تفسير الماوردي ١٥١/٦.

(٤) أخرجه ابن جرير ٣٢٧/١٢، وذكره ابن أبي حاتم ٣٣٨٦/١٠.

(٥) أخرجه ابن جرير ٣٢٧/١٢،، وروي عن مقاتل: "أنها الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله في الدنيا"، ذكره البغوي ٤٢١/٤.

(٦) زاد المسير ١٣٣/٨.

(٧) تفسير الماوردي ١٥١/٦.

والأظهر – والله تعالى أعلم – القول الأول لعدم الدليل على التخصيص، ولأن كل نفس تلوم صاحبها، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وعليه يحمل ما ورد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير.

قال البقاعي: "﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي التي تلوم صاحبها، وهي خيِّرة وشريرة، فالخيرة تكون سبباً للنجاة فيه، والأخرى تكون سبباً للهلاك فيه، فإن لامت على الشر أو على التهاون بالخير أنجت، وإن لامت على ضد ذلك أهلكت، وكيفما كانت لا بد أن تلوم، وهي بين الأمارة، والمطمئنة، فما غلب عليها منها كانت في حيِّزه"(١).

(١) نظم الدرر ٨٦/٢١.

سورة القيامة: الآية ٢٧

قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى الآية: هل من راق يرقيها.

قال – رحمه الله –: "﴿ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴾ يرقيها، وقيل: من صاعد يصعد بها إلى الله، والأول أظهر؛ لأن هذا قبل الموت، فإنه قال: ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴾[٢]، فدل على أنهم يرجونه، ويطلبون له راقياً يرقيه، وأيضاً فصعودها لا يفتقر إلى طلب من يَرْقَى بها، فإن لله ملائكة يفعلون ما يؤمرون، والرُّقية أعظم الأدوية، فإنها دواء روحاني؛ ولهذا قال النبي ﷺ في صفة المتوكلين: "لا يَسْتَرقون"[٣]، والمراد أنه يخاف الموت ويرجو الحياة بالراقي، ولهذا قال: ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴾"[٤].

الدراسة:

اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴾ على قولين:

القول الأول: أنه قول أهل المُحْتضَر: هل من راق يرقيه بالرُّقى، أو طبيب

---

(١) سورة القيامة: الآية ٢٧.

(٢) سورة القيامة: الآية ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٠/٢٦٠ ح٥٧٥٢، كتاب الطب، باب من لم يرق، ومسلم ١/١٩٩ ح٢٢٠، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، عن ابن عباس.

(٤) مجموع الفتاوى ٤/٢٦٤.

يداويه، فهو مشتق من الرُّقية.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -[١] وبه قال عكرمة، والضحاك، وأبو قِلاَبة[٢]، وقتادة[٣].

قال ابن زيد عند هذه الآية: "يقول تعالى ذكره: قال أهله: من ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به؟ وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد أنزل به شيئاً"[٤].

وقال قتادة: "أي التمسوا له الأطباء، فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً"[٥].

واختار هذا القول عامة المفسرين، وممن اختاره الفراء[٦]، وابن جرير[٧]، والزجاج[٨]، والسمرقندي[٩]، والواحدي[١٠]، والسمعاني[١١]،

---

(١) ذكره عنه ابن الجوزي ١٣٩/٨، والسيوطي في الدر ٤٧٧/٦، وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجَرْمي، أبو قِلاَبَة البصري، ثقة فاضل، كثير الإرسال، توفي بالشام هارباً من القضاء سنة ١٠٤هـ. انظر: تهذيب الكمال ٥٤٢/١٤، وتقريب التهذيب ص٣٠٤.

(٣) أخرجها ابن جرير ٣٤٥/١٢ - ٣٤٦، وأخرجه عن قتادة عبدالرزاق ٣٧١/٣ [ت محمود عبده]، وانظر: الدر ٤٧٧/٦.

(٤) أخرجه ابن جرير ٣٤٥/١٢.

(٥) أخرجه ابن جرير ٣٤٦/١٢.

(٦) معاني القرآن ٢١٢/١٣.

(٧) تفسيره ٣٤٥/١٢.

(٨) معاني القرآن وإعرابه ٢٥٤/٥.

(٩) تفسيره ٤٢٧/٣.

(١٠) الوسيط ٣٩٥/٤.

(١١) تفسيره ١٠٢/٦.

والزمخشري[١]، والبغوي[٢]، وابن جزي[٣]، والألوسي[٤]، والقاسمي[٥]، والسعدي[٦]، وابن عاشور[٧].

القول الثاني: أنه قول الملائكة بعضهم لبعض: من يَرْقَى بنفسه فيصعد بها، ملائكةُ الرحمة، أو ملائكةُ العذاب؛ وبه قال ابن عباس[٨]، وأبو العالية[٩]، وأبو الجوزاء[١٠][١١].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: "إذا بلغت نفسه يرقى بها، قالت الملائكة: من يصعد بها، ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب"[١٢].

فهو مشتق من الرُّقيِّ، وهو العلو[١٣].

---

(١) الكشاف ٦٦٩/٤.
(٢) تفسيره ٤٢٤/٤.
(٣) التسهيل ٥١٥/٢.
(٤) تفسيره ٤٦/٢٩.
(٥) محاسن التأويل ٢٥٧/١٦.
(٦) تفسيره ص٩٠٠.
(٧) تفسيره ٣٥٨/٢٩.
(٨) أخرجه عنه ابن جرير ٣٤٦/١٢، وابن أبي حاتم ٣٣٨٨/١٠.
(٩) ذكره ابن الجوزي في الدر ٤٧٧/٦، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.
(١٠) هو أوس بن عبد الله الرَّبَعيُ البصريُ من كبار العلماء، قتل يوم الجماجم، وكان من العُبَّاد. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٧١/٤، وتهذيب التهذيب ٣٨٣/١.
(١١) أخرجه ابن جرير ٣٤٦/١٢، وذكر البغوي ٤٢٤/٤ هذا القول عن مقاتل وسليمان التيمي، وذكره ابن الجوزي ١٣٩/٨عن مقاتل.
(١٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٤٦/١٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن جزي ٥١٥/٢.

قال أبو حيان: "وقيل: إنما يقولون ذلك لكراهتهم الصعود بروح الكافر لخبثها ونتنها، ويدل عليه قوله بعد ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾[1]"[2].

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول لدلالة السياق عليه كما ذكر شيخ الإسلام، ولأنه قول عامة المفسرين.

(١) سورة القيامة: الآية ٣١.

(٢) تفسيره ٣٨١/٨.

سورة الإنسان: الآية ٦

قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾ ضمِّن معنى يروى، ولذلك عدِّي تعديته.

قال - رحمه الله -: "والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[٢]، و﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣] أي: مع الله، ونحو ذلك، والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه، وكذلك قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[٤] ضُمِّن معنى يزيغونك ويصدونك، وكذلك قوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾[٥] ضُمِّن معنى: نجيناه وخلصناه، وكذلك قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ضُمِّن يروى بها، ونظائره كثيرة"[٦].

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٦.

(٢) سورة ص: الآية ٢٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٢.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٣.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٧٧.

(٦) مجموع الفتاوى ١٢٣/٢١.

وقال في موضع آخر في معرض كلامه على مسح الرأس في الوضوء وقوله تعالى: ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾[١]: "ومن ظن أن من قال بإجزاء البعض لأن الباء للتبعيض، أو دالة على القدر المشترك، فهو خطأ أخطأه على الأئمة، وعلى اللغة وعلى دلالة القرآن، والباء للإلصاق، وهي لا تدخل إلا لفائدة: فإذا دخلت على فعل يتعدى بنفسه أفادت قدراً زائداً، كما في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ فإنه لو قيل: يشرب منها، لم تدل على الرِّي، فضمِّن ﴿ يَشْرَبُ ﴾ معنى (يروى) فأفاد ذلك أنه شُربٌ يحصل معه الرّي.

وباب تضمين الفعل معنى فعل آخر حتى يتعدى بتعديته كقوله: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾، وقوله: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾[٢]، وقوله: ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[٣]، وأمثال ذلك كثير في القرآن، وهو يغني عند البصريين من النحاة عما يتكلفه الكوفيون من دعوى الاشتراك في الحروف"[٤].

ومن كلامه رحمه الله في (تلخيص الاستغاثة): "التضمين المعروف في اللغة إنما هو ضم معنى لفظ معروف إلى آخر مع بقاء معنى اللفظ الأول، كما في قوله: ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾، فإنه ضُمِّن

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٩.

(٤) مجموع الفتاوى ٣٤٢/١٣.

معنى الاستغاثة، فعُدِّي بحرف (عن) مع أنه فتنة، وكذلك قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾، فإنه ضُمِّن معنى الضم والجمع، فعدي بحرف الغاية مع أن معنى السؤال موجود، وكذلك قوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ضَمَّنه معنى (نجيناه) مع بقاء معنى النصر، وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ضُمِّن معنى (يروى) بحرف الباء مع بقاء معنى الشرب"[(١)].

الدراسة:

قبل أن أذكر أقوال المفسرين في معنى الآية، أُبين معنى التضمين وموقف العلماء منه.

التضمين: أن تقصد بلفظ فعلٍ معناه الحقيقيَّ، ويلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه ويدل عليه، بذكر شيء من متعلقاته[(٢)]، وتقدم ذكر بعض الأمثلة له في ثنايا كلام شيخ الإسلام.

وللتضمين قرينة، وهي تعدية الفعل بالحرف وهو يتعدى بنفسه، أو تعديته بنفسه وهو يتعدى بالحرف، وله شرط وهو وجود مناسبة بين الفعلين[(٣)].

وفائدة التضمين: أن تؤدي كلمةٌ مؤدى كلمتين، فالكلمتان مقصودتان معاً

---

(١) تلخيص الاستغاثة ص٨٣،وانظر طبعة عجال، وانظر: شرح العمدة ٢٠١/١، ومجموع الفتاوى ١٢٣/٢١.

(٢) الدراسات اللغوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ص٣٧١، وانظر: النحو الوافي ٥٦٤/٢.

(٣) النحو الوافي ٥٨٤/٢.

قصداً وتبعاً[١].

وقد قال بالتضمين نحاةُ البصرة، وأما نحاة الكوفة، فقال جمهورهم: إن ذلك محمول على إنابة حروف الجر بعضها مناب بعض، فقد تأتي (مِنْ) بمعنى (على) كقوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ ﴾، وقد تأتي الباء بمعنى (عن) كقوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾[٢].

وحجة البصريين: أن الأصل في ألفاظ اللغة أن يكون لكل منها معناه الخاص، وما جاء مخالفاً لذلك، فإنما جاء لزيادة فائدة.

وحجة الكوفيين: أن ما ذهبوا إليه قد ورد به الكلام العربي الفصيح[٣].

وشيخ الإسلام يرجح مذهب البصريين في قولهم بالتضمين، ويرى أن مذهب الكوفيين في إنابة الحروف بعضها عن بعض غلط كما تقدم[٤].

وما ذهب إليه شيخ الإسلام هو ما رجحه ابن جرير الطبري، حيث قال مقعداً لما رجحه بقاعدة: "لكل حرف من حروف المعاني وجهه هو به أولى من غيره، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم بها"[٥].

وقد اختلف المفسرون في توجيه الباء في قوله تعالى: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ على أقوال ستة:

---

(١) النحو الوافي ٢/٥٦٥.

(٢) سورة المعارج: الآية ١.

(٣) انظر: الدراسات اللغوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر: مغني اللبيب ١/١١١.

(٤) وانظر: الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ص٣٧٢.

(٥) تفسير ابن جرير ١/٣٩٩ [ط شاكر]، وانظر: قواعد التفسير ١/٣٨٦.

القول الأول: أنه على تضمين (يشرب) معنى: يَرْوَى، أي يروى بها، وهو ظاهر اختيار ابن جرير[١]، واختاره النحاس[٢]، وشيخ الإسلام كما تقدم، وابن القيم كما يأتي، وابن كثير[٣].

قال ابن القيم عند هذه الآية: "إنهم يضمنون يشرب معنى يروي فيعدُّونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين أحدهما بالتصريح به، والثاني بالتضمين والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها، ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتى روين، ثم ترفعن وصعدن[٤]، وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها، فإنه لا دلالة فيه على الرِّي، وأن يقال: يروى بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه، بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها، دل على الشرب بصريحه وعلى الرِّي بخلاف الباء، فتأمله"[٥].

القول الثاني: أنها مزيدة، أي يشربها، ويدل له قراءة ابن أبي عبلة (يَشْرَبُها)[٦] فعُدَّى إلى الضمير بنفسه.

ويدل له أيضاً قول الشاعر:

---

(١) تفسيره ٣٥٨/١٢.

(٢) الإعراب ٩٨/٥.

(٣) تفسيره ٤٨٤/٤.

(٤) هكذا في المطبوع، ولعله تصحيف، وتقدم ذكر البيت.

(٥) بدائع الفوائد ٢٠٣/٢.

(٦) ذكرها ابن عطية ١٨٥/١٦، واستدل بها، وأبو حيان ٣٨٧/٨.

شربن بماء البحر ثم ترفَّعت ** متى لُجج خُضْرٍ لهنَّ نَئِيْجُ[١]

فالباء في قوله (بماء) زائدة، أي: شربن ماءَ البحر[٢].

واختار هذا القول بعض المفسرين كالفراء[٣]، وابن عطية[٤]، وأجازه ابن قتيبة[٥].

قال السهيلي: "وهذا ضعيف، لأن الباء إنما تزاد في مواضع ليس هذا منها"[٦].

القول الثالث: أنها بمعنى (مِنْ)، أي يشرب منها؛ واختاره السمعاني[٧]، والقاسمي[٨].

واستُدل له بالبيت السابق؛ أي: شربن من ماء البحر[٩].

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، يصف السحاب، انظر: ديوان الهذليين ص٥١، ومعاني القرآن للفراء ٢١٥/٣، و(متى) بمعنى (في) في لغة هذيل، ولُجَج: جمع لُجة، ولجة البحر: حيث لا يدرك قَعْره. اللسان ٣٩٩٩/٧، مادة (لجج. ونئيج: سريع مع صوت، انظر: المعجم الوسيط ٨٩٥/٢، مادة (نأَج).

(٢) استدل بهذا البيت الفراء ٢١٥/٣، وابن عطية ١٨٥/١٦.

(٣) معاني القرآن ٢١٥/٣.

(٤) تفسيره ١٨٥/١٦.

(٥) تأويل مشكل القرآن ص٢٤٨، ٥٧٥.

(٦) تفسيره التسهيل ٥١٨/٢.

(٧) تفسيره ١١٥/٦.

(٨) محاسن التأويل ٧/١٧.

(٩) انظر: تأويل مشكل القرآن ص٥٧٥.

قال السَّمين الحلبي – بعد أن ذكر البيت –: "فهذه تحتمل الزيادة، وتحتمل أن تكون بمعنى (من)"[١].

القول الرابع: أنها حالية، أي: ممزوجةً بها[٢].

القول الخامس: أنها متعلقة بـ(يَشْرب) والضمير يعود على الكأس، أي يشربون العين بتلك الكأس، والباء للإلصاق[٣]، واختاره الزمخشري حيث قال: "فإن قلت لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً[٤]، وبحرف الإلصاق آخراً؟ قلت: لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته، وأما العين فبها يمزجون شرابهم، فكان المعنى: يشرب عبادُ الله بها الخمرَ، كما تقول: شربت الماءَ بالعسل"[٥].

واختاره الرازي[٦] حيث نقل كلام الزمخشري، والسهيلي[٧] وقال: "إنما يعني كقولك: شربت الماء بالعسل، لأن العين المذكورة تمزج بها الكأس من الخمر"، واختاره البقاعي[٨]، والسعدي[٩] حيث قال: "ذلك الكأس الذي يشربون به".

---

(١) انظر: الدر المصون ٦٠١/١٠.

(٢) ذكره السمين ٦٠٠/١٠، والعكبري في الإملاء ص٥٢٤.

(٣) الدر المصون ٦٠٠/١٠.

(٤) يعني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الإنسان: ٥.

(٥) الكشاف ١٦٦/٤.

(٦) انظر: تفسيره ٢١٣/٣٠.

(٧) انظر: التسهيل ٥١٨/٢.

(٨) انظر: نظم الدرر ١٣٦/٢١.

(٩) تفسيره ص٩٠١.

وقال ابن عاشور: "وعَدَّى فعل (يشرب) بالباء وهي بـــاء الإلصـــاق؛ لأن الكافور يمزج به شرابهم، فالتقدير: عينـــاً يشرب عبادُ الله خمـــرَهم بهـــا، أي مصحوباً بمائها"[(١)].

القول السادس: أنه على تضمين (يشرب) يَلْتَذُّ، أي يلتذ بها شارباً[(٢)].

قال العكبري: "والأولى أن يكون محمولاً على المعنى، والمعنى يلتذ بها"[(٣)].

والأظهر – والله أعلم – القول الأول، وهو ما اختاره شيخ الإسلام ومـــن وافقه، وذلك لما ذكره – رحمه الله – من أن القول بالتضمين أولى من القـــول بالزيادة، أو القول بإنابة الحروف بعضها مناب بعض، وأما مـــا ذهـــب إليـــه الزمخشري ومن تبعه فلا يخفى ما فيه من التكلُّف.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨١/٢٩.

(٢) ذكره العكبري في الإملاء ص٥٢٤، والسمين ٦٠٠/١٠.

(٣) إملاء ما من به الرحمن ص٥٢٤.

سورة النبأ: الآيتان ٣٧ – ٣٨

قال تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن معنى قوله تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ لا يقدر الخلق أن يكلموا الرب – تعالى – إلا بإذنه، والمقصود عموم الخلق مؤمنهم وكافرهم.

قال رحمه الله عند هاتين الآيتين: "فإن هذا مثل قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[2] ففي الموضعين: اشترط إذنه. فهناك ذكر (القول الصواب) وهنا ذكر (أن يرضى قوله) ومن قال الصواب: رضي الله قوله؛ فإن الله إنما يرضى بالصواب، وقد ذكروا في تلك الآية قولين:

أحدهما: أنه الشفاعة أيضا كما قال ابن السائب: لا يملكون شفاعة إلا بإذنه.

والثاني: لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه؛ قاله مقاتل، كذلك قال مجاهد: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ قال: كلاماً، هذا من تفسيره الثابت

---

(١) سورة النبأ: الآيتان ٣٧ – ٣٨.

(٢) سورة طه: الآية ١٠٩.

عنه، وهو من أعلم – أو أعلم – التابعين بالتفسير، قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وقال: عرضت المصحف على ابن عباس: أقفه عند كل آية وأسأله عنها. وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه، وهذا يتناول (الشفاعة) أيضاً، وفي قوله: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ لم يذكر استثناء؛ فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً؛ إذ المخلوق لا يملك شيئا يشارك فيه الخالق كما قد ذكرناه في قوله: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾[1] أن هذا عام مطلق. فإن أحداً – ممن يدعى من دونه – لا يملك الشفاعة بحال، ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم، وكذلك قوله: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ هذا قول السلف وجمهور المفسرين، وقال بعضهم: هؤلاء هم الكفار، لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم.

قال ابن عطية: قوله: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ الضمير للكفار، أي لا يملكون – من إفضاله وإكماله – أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها. وهذا مبتدع، وهو خطأ محض، والصحيح: قول الجمهور والسلف: أن هذا عام كما قال في آية أخرى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[2] وفي حديث التجلي الذي في الصحيح – لما ذكر مرورهم على الصراط – قال ﷺ: "ولا يتكلم أحد إلا الرسل ودعوى الرسل: اللهم سلم سلم"[3]، فهذا في وقت المرور على

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٦.

(٢) سورة طه: الآية ١٠٨.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٣/١٣ ح٧٤٣٧، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾، ومسلم ١٦٣/١ ح١٨٢، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، عن أبي هريرة.

الصراط، وهو بعد الحساب والميزان، فكيف بما قبل ذلك؟ وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل وأولي العزم وكل يقول: "إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني فعلت كذا وكذا نفسي نفسي نفسي"(١)، فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم؟.

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة، وبعد أن ذكر الكافرين، فقال: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ثم قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾(٢)، فقد أخبر أن الروح والملائكة يقومون صفاً لا يتكلمون، وهذا هو تحقيق قوله: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ والعرب تقول: ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئا أي لا أقدر من أمره على شيء، وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره خطابه ولو بالسؤال، فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ولا الخطاب، فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، قال تعالى: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ

(١) أخرجه البخاري ٤٧٩/١٣ ح٧٤١٠، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾، ومسلم ١٨٠/١، ح٣٢٢، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منْزلة، عن أبي هريرة.

(٢) سورة النبأ: الآيات ٣١ – ٣٨.

مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۚ ﴾[١]، فقد أخبر الخليل أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء فكيف غيره؟"[٢].

الدراسة:

اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ﴾ على قولين:

القول الأول: أن المعنى: لا يقدر الخلق أن يكلموا الرب - تعالى - إلا بإذنه؛ وبه قال مجاهد، وابن زيد، وقتادة[٣]، ومقاتل[٤]، واختاره جمهور المفسرين، وممن اختاره ابن جرير[٥]، والواحدي[٦]، والزمخشري[٧]، والرازي[٨]، والبيضاوي[٩]، والسهيلي[١٠]، وابن كثير[١١]، والألوسي[١٢]، والسعدي[١٣].

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٤.
(٢) مجموع الفتاوى ١٤/٣٩٦ - ٣٩٩.
(٣) أخرجه عنهم ابن جرير ١٢/٤١٤، وانظر: الدر ٦/٥٠٥.
(٤) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٤/٢١٧، والبغوي ٤/٤٤٠، وابن الجوزي ٨/١٦٧.
(٥) تفسيره ١٢/٤١٤.
(٦) الوسيط ٤/٢١٧.
(٧) الكشاف ٤/١٧٩.
(٨) تفسيره ٣٠/٢١.
(٩) تفسيره ٢/٥٦٣.
(١٠) التسهيل ٢/٥٣٠.
(١١) تفسيره ٤/٤٩٦.
(١٢) روح المعاني ٣٠/١٩.
(١٣) تفسيره ص٩٠٨.

ويدل لهذا القول عموم الآية، فإن قوله تعالى: ﴿ خِطَابًا ﴾ نكرة في سياق النفي فتعمُّ، وتقدم كلام شيخ الإسلام في تقرير هذا المعنى.

القول الثاني: أن المعنى لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه؛ وبه قال محمد بن السائب الكلبي(١)، واختاره بعض المفسرين، كالسمرقندي(٢)، والقاسمي(٣).

وقد ردّ هذا القول شيخ الإسلام كما تقدم.

مسألة: أكثر المفسرين على أنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ عام لجميع الخلق أهل السموات والأرض(٤).

واستدل له شيخ الإسلام – كما تقدم – بالنصوص الدالة على خشوع الخلائق جميعاً لله – تعالى –، كما استدل بسياق الآية.

وقال الرازي: "والصواب أنه ضمير لأهل السموات والأرض؛ فإن أحداً من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله، ومكالمته، وأما الشفاعات الواقعة بإذنه فغير واردة على هذا الكلام؛ لأنه نفى الملك، والذي يحصل بفضله وإحسانه فهو غير مملوك، فثبت أن هذا السؤال غير لازم"(٥).

وقال ابن عاشور: "وفعل ﴿ يَمْلِكُونَ ﴾ يعم لوقوعه في سياق النفي، كما

---

(١) ذكره عنه الثعلبي ١١٩/١٠، وابن الجوزي ١٦٧/٨.

(٢) تفسيره ٤٤١/٣.

(٣) تفسيره ٣٦/١٧.

(٤) انظر: تفسير الرازي ٢١/٣٠، والبيضاوي ٥٦٣/٢، والنسفي ٧٦٩/٢، والألوسي ١٩/٣٠، والسعدي ص٩٠٨، وابن عاشور ٥٠/٣٠.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/٣٠ بتصرف يسير.

تعم النكرة المنفية، و﴿ خِطَابًا ﴾ عام أيضاً وكلاهما من العام المخصوص بمخصص منفصل كقوله عقب هذه الآية ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾، وقوله: ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[١]، وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[٣]"[٤].

وقيل: للناس خاصة[٥] وقيل للمؤمنين[٦]، وقيل للمشركين؛ وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –[٧].

قال ابن عطية: "الضمير للكفار، أي لا يملكون من أفضاله وأجماله أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها، وهذا في موطن خاص"[٨].

وقال الرازي: "قال القاضي: إنه راجع إلى المؤمنين، والمعنى أن المؤمنين لا يملكون أن يخاطبوا الله في أمر من الأمور؛ لأنه لما ثبت أنه عدل لا يجور، ثبت أن العقاب الذي أوصله إلى الكفار عدل، وأن الثواب الذي أوصله إلى المؤمنين

---

(١) سورة هود: الآية ١٠٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

(٤) التحرير والتنوير ٥٠/٣٠.

(٥) انظر: تفسير السهيلي ٥٣٠/٢، وعلى هذا القول تخرج الملائكة.

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢١/٣١.

(٧) ذكره عنه الرازي ٢١/٣١، وأبو حيان ٤٠٧/٨.

(٨) تفسيره ٢١٥/١٦.

عدل، وأنه ما يخسر حقهم، فبأي سبب يخاطبونه"[١].

وردّهُ شيخ الإسلام كما تقدم، والألوسي[٢].

والراجح – والله أعلم – القول الأول، وأن معنى الآية لا يملكون كلاماً، لأنه قول جمهور السلف، ولعدم الدليل على تخصيصها بالشفاعة، كما أن الراجح أيضاً أن الضمير في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ عام لأهل السموات والأرض؛ لأنه ظاهر، وأما ما ورد عن ابن عباس فلا يعرف له سند متصل.

---

(١) تفسيره ٢١/٣١.

(٢) تفسيره ١٩/٣٠.

سورة التكوير: الآيات ١٩ – ٢١

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالرسول في الآية جبريلُ عليه السلام.

قال – رحمه الله –: "﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾ فهذا جبرائيل؛ فإن هذه صفاته، لا صفات محمد ﷺ"[٢].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالرسول في الآية على قولين:

القول الأول: أنه جبريل عليه السلام؛ وبه قال ابن عباس[٣]، وقتادة[٤]، وهو قول عامة المفسرين[٥].

---

(١) سورة التكوير: الآيات ١٩ – ٢١.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٩/٢، وانظر: ٥٤١/٦، ٢٧٤/١١، درء التعارض ٥٨/١، ٢٧/١٠، النبوات ٩/١، ١٢٧، ١٨٢، ٢٨٨، الصفدية ١٦٤/١، الجواب الصحيح ٤٤٦/٥، ٣١٢، الرد على المنطقيين ٣٨/١، ٥٤١/١، الرد على البكري ٦٥٢/٢، مجموع الفتاوى ١٣٥/١٢، ٢٦٥، ٣٠٧، ٣٧٧، ٥٢١، ٥٥٥، ٦٩/١٥، ٨٢/١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥٣٠/٦، وعزاه لابن المنذر.

(٤) أخرجه عبدالرزاق ٣٩٩/٣ [ط محمود عبده]، وابن جرير ٤٧١/١٢.

(٥) نسبه للجمهور ابن عطية ٢٤٢/١٦، وأبو حيان ٤٢٥/٨، والألوسي ٥٩/٣٠، وانظر: معاني ==

قال ابن كثير عند هذه الآية: "يعني أن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم؛ أي: مَلَك شريف، حسن الخَلق بَهِيُّ المنظر، وهو جبريل - عليه الصلاة والسلام -؛ قاله ابن عباس والشعبي وميمون بن مهران[١] والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والضحاك وغيرهم"[٢].

وقال ابن جزي: "الأظهر أنه جبريل؛ لأنه وصفه بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، وقد وصف جبريل بهذا لقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[٣]"[٤].

القول الثاني: أن المراد بالرسول في الآية محمد ﷺ[٥].

قال ابن جزي: "لا يجوز أن يقال إنّه محمد عليه السلام؛ لأن الآية نزلت في الرد على الذين قالوا إن محمداً قال القرآن، فكيف يخبر الله أنه قوله، وإنما أراد جبريل، وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به، وهو في الحقيقة قول الله تعالى"[٦].

والراجح - والله تعالى أعلم - القول الأول، لدلالة السياق عليه، ولأنه قول عامة المفسرين، والقول الثاني شاذ[٧].

==

القرآن للفراء ٢٤٢/٣، وتفسير ابن جرير ٤٧١/١٢، والزجاج ٢٩٢/٥، والماوردي ٤٥٣/٤، والسمعاني ٦٦٩/٦، والبغوي ٤٥٣/٤، والزمخشري ١٩٠/٤.

(١) ميمون بن مهران الرقي، أبو أيوب، فقيه من القضاة، كان ثقة في الحديث كثير العبادة، توفي سنة ١١٧هـ. انظر: حلية الأولياء ٨٢/٤، تهذيب التهذيب ١٠/ ٣٩٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٢/٤، ونسبه الماوردي ٢١٨/٦ للضحاك والحسن وقتادة.

(٣) سورة النجم: الآية ٥ - ٦.

(٤) تفسير ابن جزي ٥٤٢/٢.

(٥) ذكره الماوردي ٢١٨/٦، ونسبه لابن عيسى، وانظر: السمعاني ٦٦٩/٦، وابن عطية ٢٤٢/١٦.

(٦) تفسيره ٥٤٢/٢.

(٧) انظر الكلام على آية الحاقة ص٥٠٩.

سورة الأعلى: الآية ١

قال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن المراد هنا تسبيح الاسم.

قال - رحمه الله -: "وأما احتجاجهم بقوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وأن المراد سبح ربك الأعلى وكذلك قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[٢] وما أشبه ذلك فهذا للناس فيه قولان معروفان وكلاهما حجة عليهم، منهم من قال: (الاسم) هنا صلة، والمراد سبح ربك وتبارك ربك.

وإذا قيل: هو صلة فهو زائد لا معنى له؛ فيبطل قولهم إن مدلول لفظ اسم (ألف سين ميم) هو المسمى؛ فإنه لو كان له مدلول مراد لم يكن صلة.

ومن قال: إنه هو المسمى وأنه صلة؛ كما قاله ابن عطية؛ فقد تناقض فإن الذي يقول هو صلة لا يجعل له معنى؛ كما يقوله من يقول ذلك في الحروف الزائدة التي تجيء للتوكيد كقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[٣]، و﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾[٤] ونحو ذلك، ومن قال: إنه ليس بصلة بل المراد تسبيح الاسم نفسه فهذا مناقض لقولهم مناقضة ظاهرة.

والتحقيق أنه ليس بصلة بل أمر الله بتسبيح اسمه كما أمر بذكر اسمه، والمقصود

---

(١) سورة الأعلى: الآية ١.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٤٠.

بتسبيحه وذكره هو تسبيح المسمى وذكره، فإن المسبح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه؛ فيقول: سبحان ربي الأعلى، فهو نطق بلفظ ربي الأعلى، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى، ومن جعله تسبيحاً للاسم يقول المعنى أنك لا تسم به غير الله ولا تلحد في أسمائه، فهذا مما يستحقه اسم الله لكن هذا تابع للمراد بالآية ليس هو المقصود بها القصد الأول، وقد ذكر الأقوال الثلاثة غير واحد من المفسرين كالبغوي قال: قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؛ أي قل: سبحان ربي الأعلى، وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة وذكر حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾. فقال: "سبحان ربي الأعلى".

قلت: في ذلك حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه لما نزل: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[1]، قال: "اجعلوها في ركوعكم"ولما نزل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: "اجعلوها في سجودكم"[2] والمراد بذلك أن يقولوا في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى، كما ثبت في الصحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ"أنه قام بالبقرة والنساء وآل عمران ثم ركع نحواً من قيامه يقول: سبحان ربي العظيم، وسجد نحواً من ركوعه يقول: سبحان ربي الأعلى"[3].

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٤.

(٢) يأتي تخريجه قريباً.

(٣)أخرجه مسلم ١/٥٣٦ ح (٧٧٢)،

وفي السنن عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: "إذا قال العبد في ركوعه: سبحان ربي العظيم ثلاثاً فقد تم ركوعه، وذلك أدناه، وإذا قال في سجوده: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً فقد تم سجوده، وذلك أدناه"(١) وقد أخذ بهذا جمهور العلماء.

قال البغوي: وقال قوم: معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون، وجعلوا الاسم صلة. قال: ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحدا؛ لأن أحداً لا يقول سبحان اسم الله وسبحان اسم ربنا إنما يقولون: سبحان الله وسبحان ربنا. وكان معنى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ سبح ربك.

قلت: قد تقدم الكلام على هذا، والذي: يقول سبحان الله وسبحان ربنا إنما نطق بالاسم الذي هو الله والذي هو ربنا: فتسبيحه إنما وقع على الاسم لكن مراده هو المسمى فهذا يبين أنه ينطق باسم المسمى والمراد المسمى. وهذا لا ريب فيه لكن هذا لا يدل على أن لفظ اسم الذي هو (ألف سين ميم) المراد به المسمى..."(٢).

وقال ابن القيم: "وعبَّر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية -قدس الله روحه- عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة، فقال: المعنى: سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به، وكذا سبح ربك ذاكراً اسمه، وهذه الفائدة تساوي رحلة لكنْ لمنْ يَعْرِفُ

---

(١) أخرجه أبو داود /٥٥٠ ح ٨٨٦، وقال: "هذا مرسل عون لم يدرك عبد الله"، والترمذي ٤٦/٢ ح ٢٦١، وقال: "ليس إسناده بمتصل، عون بن عبد الله بن عتبة لم يلق ابن مسعود، والعمل على هذا عند أهل العلم"

(٢) مجموع الفتاوى ١٩٨/٦، وتقدم ذكر هذا النص في آية الرحمن، وتخريج أحاديثه.

قَدْرَها، فالحمد لله المنان بفضله، ونسأله تمام نعمته"[١].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالاسم في الآية(٢) على قولين:

القول الأول: أن الاسم هنا على أصله.

قال الفراء: "﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾، و﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾، كل ذلك قد جاء، وهو من كلام العرب"[٣].

واعترض عليه الواحدي بقوله: "وبينهما فرق؛ لأن معنى ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ نزه الله تعالى بذكر اسمه المنبئ عن تنْزيهه وعلوه عمّا يقول المبطلون، ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ أي: نزِّه الاسم من السوء"[٤].

وقال ابن جرير – بعد أن ذكر أقوال السلف في الآية –: "وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معناه: نزه اسم ربك أن تدعو به الآلهة والأوثان، كما ذكرتُ من الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا: سبحان ربي الأعلى، فبيّن بذلك أن معناه كان عندهم

---

(١) بدائع الفوائد ١٧/١.

(٢) وفي معنى ﴿ سَبِّحِ ﴾ أقوال خمسة ذكرها ابن الجوزي ٢٢٧/٨ أحدها: قل سبحان ربي الأعلى، قاله الجمهور، والثاني: عظم، الثالث: صل بأمر ربك، الرابع: نزه ربك عن السوء، الخامس: نزه اسم ربك ذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت معظم له خاشع له، وانظر: ابن جرير ٥٤٢/١٢، والماوردي ٢٥١/٦.

(٣) معاني القرآن ٢٥٦/٣.

(٤) ذكره عنه الرازي ١٢٣/٣١، ولم أجده في الوسيط والوجيز.

معلوماً: عظم اسمَ ربك، ونزهه"[١].

وقال الزجاج: "نزه ربك، وقل: سبحان ربي الأعلى"[٢].

وقد ردّ النحاس قول الفراء، وبيّن أن المعنى ليكن تسبيحك باسم ربك، وقال: "تكلم العلماء في معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، بأجوبة كلها مخالف لمعنى ما فيه الباء"، واختار أن المعنى: "نزه اسم ربك الأعلى وعظمه عن أن تنسبه إلى ما نسبه إليه المشركون؛ لأنه الأعلى أي القاهر لكل شيء أي العالي عليه"[٣].

وقال الثعلبي: "يعني قل: سبحان ربي الأعلى، وإلى هذا التأويل ذهب جماعة من الصحابة والتابعين"[٤].

قال: "وقال آخرون نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترمٌ وجعلوا الاسم بمعنى التسمية"[٥].

وقال الألوسي معلقاً على هذا القول: "وأنت تعلم أن هذا يندرج في تسبيح الاسم"[٦].

---

(١) تفسيره ٥٤٣/١٢.

(٢) معاني القرآن ٣١٥/٥.

(٣) إعراب القرآن ٢٠٣/٥، وأيد قوله بحديث ابن عباس كان النبي ﷺ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قال: "سبحان ربي الأعلى"، وقد ذكره بإسناده.

(٤) تفسيره ١٨٣/١٠.

(٥) تفسيره ١٨٣/١٠، وانظر: البغوي ٤٧٥/٤، وذكره ابن جرير ٥٤٣/١٢ وقال: "وإنما عُني بالاسم: التسمية، ولكن وضع الاسم مكان المصدر".

(٦) تفسيره ١٠٣/٣٠.

وقال ابن عطية: "والاسم الذي هو: ألف، سين، ميم، يأتي في مواضع من الكلام الفصيح يراد به المسمى، ويأتي في مواضع يراد به التسمية، ومتى أريد به المسمى فإنما هو صلة كالزائد، كأنه قال في هذه الآية: سبح ربك، أي: نزهه، وهذه الآية تحتمل هذا الوجه الأول، وتحتمل أن يراد بالاسم التسمية نفسها على معنى نزه اسم ربك عن أن يسمى به صنم أو وثن، فيقال له إله ورب ونحو ذلك، و﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾ يصح أن يكون صفة للاسم، ويحتمل أن يكون صفة للرب"(١).

وقال السهيلي: "وذكر الاسم هنا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد المسمى، ويكون الاسم صلة كالزائد، ومعنى الكلام: سبح ربك أي نزهه عما لا يليق به، وقد يتخرج ذلك على قول من قال إن الاسم هو المسمى، والآخر أن يكون الاسم مقصوداً بالذكر ويحتمل المعنى، والآخر أن يكون الاسم مقصوداً بالذكر ويحتمل المعنى على هذا أربعة وجوه:

الأول: تنْزيه أسماء الله تعالى عن المعاني الباطلة، كالتشبيه والتعطيل.

الثاني: تنْزيه أسماء الله عن أن يسمى بها صنم أو وثن.

الثالث: تنْزيه أسماء الله عن أن تدرك في حال الغفلة دون خشوع.

الرابع: أن المراد قول: سبحان الله، ولّما كان التسبيح باللسان لا بد فيه من

---

(١) تفسيره ٢٨٠/١٦ باختصار يسير، وقال السهيلي ٥٦٣/٢: "والأعلى يحتمل أن يكون صفة للرب أو للاسم والأول أظهر".

ذكر الاسم أوقع التسبيح على الاسم، وهذا القول هو الصحيح، ويؤيده ما ورد عن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأ هذه الآية، قال: "سبحان ربي الأعلى"، وأنها لما نزلت قال: "اجعلوها في سجودكم"، فدل ذلك على أن المراد هو التسبيح باللسان مع موافقة القلب، ولا بد في التسبيح باللسان من ذكر اسم الله تعالى، فلذلك قال: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾، مع أن التسبيح في الحقيقة إنما هو لله تعالى، لا لاسمه، وإنما ذكر الاسم لأنه هو الذي يوصل به إلى التسبيح باللسان، وعلى هذا يكون موافقاً في المعنى لقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾؛ لأن معناه نزه الله بذكر اسمه، ويؤيده ما روي عن ابن عباس أن معنى سبِّح: صلِّ باسم ربك، أي صلِّ واذكر في الصلاة اسم ربك، والأعلى يحتمل أن يكون صفة..."[1].

وقال ابن القيم عند هذه الآية: "إن الذكر الحقيقي محله القلب لأنه ضد النسيان، والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعاً، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما، واجتماعهما، فصار معنى الآيتين سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيهاً على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم دون ما سواه والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله؛ لأن اللفظ لا يراد لنفسه فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما

(١) تفسيره ٢/٥٦٣.

يدل عليه من المعنى"[١].

واختاره بعض المفسرين، وممن اختاره الفراء، وابن جرير، والزجاج، والنحاس، وشيخ الإسلام - كما تقدم -، وأبو السعود[٢]، والسعدي[٣]، والشنقيطي[٤].

وقال الألوسي - بعد ذكر أقوال المفسرين في الآية -: "وأنا أقول: إن كان سبح بمعنى نزه فكلا الأمرين من كون اسم مقحماً وكونه غير مقحم، وتعلق التسبيح به على الوجه الذي سمعت محتمل غير بعيد، وإذا كان معناه: قل سبحان الله؛ كما هو معروف فيما بينهم، فكونه مقحماً متعين؛ إذْ لم يُسمع سلفاً وخلفاً من يقول: سبحان اسم ربي الأعلى، أو سبحان الله، والأخبار ظاهرة في ذلك"[٥].

قال القرطبي: "يستحب للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أن يقول: سبحان ربي الأعلى، قاله النبي ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين"[٦].

القول الثاني: أن الاسم صلة، والمعنى نزه ربك الأعلى عما يقول فيه

---

(١) بدائع الفوائد ١/١٧.

(٢) تفسيره ٩/١٤٣.

(٣) تفسيره ص٩٢٠.

(٤) تفسيره ٧/٧٩٩.

(٥) تفسيره ٣٠/١٠٣.

(٦) تفسيره ٢٠/٣٠.

الملحدون، ويصفه به المبطلون[١]، والمقصود تعظيم المسمى[٢]، كما قال لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ** ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[٣]

قال الرازي: "المذكور إذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو، بل يذكر اسمه، فيقال: سبح اسمه، ومجد ذكره، كما يقال: سلام على المجلس العالي"، وذكر قول لبيد، وقال: "وهذه طريقة مشهورة في اللغة"[٤].

وأجاب شيخ الإسلام عن الاستدلال بهذا البيت - كما تقدم - بأن مراده: ثم النطق بهذا الاسم وذِكره.

وإلى هذا القول ذهب من قال إن الاسم[٥] هو المسمى[٦].

ويناقش بأن الأصل عدم الزيادة، ورده شيخ الإسلام، كما تقدم بأن فيه تناقضاً.

واختاره بعض المفسرين، كالسمرقندي[٧]، والسمعاني[٨].

قال الرازي: "وهو اختيار جمع من المحققين، قالوا: لأن الاسم في الحقيقة

---

(١) تفسير الثعلبي ١٠/١٨٣.

(٢) انظر: تفسير الماوردي ٦/٢٥١، وانظر: ص٤٣٤ آية الرحمن.

(٣) تقدم ذكر هذا البيت ص٤٣٥، وانظر: السمعاني ٦/٢٠٦، والرازي ٣١/١٢٤.

(٤) تفسيره ٣١/١٢٤، وانظر: القاسمي ١٧/١٢٤.

(٥) حرر الرازي في تفسيره ٣١/١٢٤ الكلام على هذه المسألة تحريراً بالغاً، وقال: "إن هذه المسألة في وصفها ركيكة، والخوض في الاستدلال عليها أَرَكُّ".

(٦) انظر: الوسيط للواحدي ٤/٤٦٩، والسمعاني ٥/٢٠٦، والبغوي ٤/٤٧٥، والسهيلي ٢/٥٦٢، ورده الرازي ٣١/١٢٤، قالوا: لأنه لا أحد يقول سبحان اسم ربي.

(٧) تفسيره ٣/٤٦٩.

(٨) تفسيره ٦/٢٠٦.

لفظةٌ مؤلفةٌ من حروف ولا يجب تنْزيهها كما يجب في الله تعالى، ولكن المذكور إذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو، بل يذكر اسمه، فيقال: سبح اسمَه، ومجِّد ذكرَه كما يقال سلام على المجلس العالي..."[١].

وقال بعضهم: والاسم قد يقحم لضرب من التعظيم على سبيل الكناية[٢].

واستدلوا بقراءة ابن عمر – رضي الله عنهما –: (سبحان ربي الأعلى)[٣].

وما ورد عن علي ﷺ أنه كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى[٤]، وهكذا روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –[٥].

قال ابن عطية: "وهي في مصحف أبي بن كعب كذلك، وهي قراءة أبي موسى الأشعري، وابن الزبير، ومالك بن دينار[٦]"[٧].

وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قال: سبحان ربي الأعلى[٨].

---

(١) تفسيره ١٢٤/٣١.

(٢) انظر: تفسير الألوسي ١٠٢/٣٠.

(٣) أخرجه ابن جرير ٥٤٢/١٢، واستدل بها.

(٤) أخرجه ابن جرير ٥٤٢/١٢، واستدل بها، وذكره في الدر ٥٦٦/٦، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٤١٨/٣، وابن جرير ٥٤٢/١٢، وذكره في الدر ٥٦٦/٦، وعزاه أيضاً لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، واستدل بهما ابن عطية ٢٨١/١٦، والألوسي ١٠٢/٣٠.

(٦) هو الإمام الزاهد أبو يحيى مالك بن دينار البصري، من ثقات التابعين، وأعيان كتبة المصاحف، مات سنة ١٣٠.انظر سير أعلام النبلاء ٣٦٢/٥، والتقريب ص ٥١٧ رقم (٦٤٣٥)

(٧) تفسيره ٢٨١/١٦.

(٨) أخرجه أحمد ٢٣٢/١، وأبو داود ٥٤٩/١ ح٨٨٣، كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، وقال: "خولف وكيع – أحد الرواة – في هذا الحديث، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً". وانظر: الدر ٥٦٦/٦.

قال الثعلبي: "وكذلك روي عن علي وأبي موسى[١] وابن عمر[٢]، وابن عباس، وابن الزبير[٣] أنهم كانوا يفعلون ذلك(٤)، ورواه قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً[٥]، وروي عن عمر رضي الله عنه [٦].

واستدلوا أيضاً بحديث عقبة بن عامر الجهني، قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: "اجعلوها في ركوعكم"، فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قال: "اجعلوها في سجودكم"[٧].

وهذه الآثار ليس فيها دلالة على أن الاسم في الآية، صلة، بل فيها الامتثال للأمر المذكور.

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول، وأن المراد تسبيح الاسم، وأن

---

(١) وذكره في الدر ٥٦٦/٦، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف.

(٢) وذكره في الدر ٥٦٦/٦، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) ذكره في الدر ٥٦٦/٦، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٤) تفسير الثعلبي ١٨٢/١٠، وانظر: ابن عطية ٢٨١/١٦.

(٥) أخرجه ابن جرير ٥٤٢/١٢، وذكره في الدر ٥٦٦/٦، وعزاه لعبد بن حميد.

(٦) ذكره في الدر ٥٦٦/٦، وعزاه لابن أبي شيبة.

(٧) أخرجه أحمد ١٥٥/٤، وأبو داود ٥٤٢/١، ح٨٦٩، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، وابن ماجه ٢٨٧/١ ح٨٨٧، كتاب إقامة الصلاة، باب التسبيح في الركوع والسجود، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ٤٧٧/٢.

الاسم ليس بصلة؛ لأن الأصل عدم الزيادة، ولا يلزم من هذا القول أن يقـــول الإنسان عند تسبيحه: سبحان اسم ربي، بل المراد النطق باسم الله تعالى، وتنْزيه أسمائه تعالى عمّا لا يليق بها، وتقدم تقرير ذلك.

سورة الأعلى: الآية ٣

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [١].

رجح شيخ الإسلام أن قوله: ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ عام لوجوه الهدايات في الإنسان والحيوان.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "قال ابن عطية: وقوله ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ عام لوجوه الهدايات في الإنسان والحيوان، وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات فقال الفراء: معناه هدى وأضل واكتفى بالواحد لدلالتها على الأخرى. قال: وقال مقاتل والكلبي: هدى إلى وطء الذكور للإناث. وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي. وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع. قال ابن عطية: وهذه الأقوال مثالات والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي هذه الأقوال وغيرها فذكر سبعة أقوال: قدر السعادة والشقاوة وهدى للرشد والضلالة؛ قاله مجاهد. وقيل: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها إليه، قاله عطاء. وقيل: قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج؛ قاله السدي. وقيل: قدرهم ذكراناً وإناثاً وهدى الذكور لإتيان الإناث، قاله مقاتل. وقيل: قدر فهدى وأضل فحذف (وأضل)؛ لأن في الكلام ما يدل عليه؛ حكاه الزجاج. وقيل: قدر الأرزاق وهدى إلى طلبها؛ وقيل: قدر

---

(١) سورة الأعلى: الآية ٣.

الذنوب فهدى إلى التوبة؛ حكاهما الثعلبي.

قلت: القول الذي حكاه الزجاج هو قول الفراء وهو من جنس قوله: (إن نفعت وإن لم تنفع) ومن جنس قوله: (سرابيل تقيكم الحر والبرد)، وقد تقدم ضعف مثل هذا؛ ولهذا لم يقله أحد من المفسرين، والأقوال الصحيحة هي من باب المثالات كما قال ابن عطية، وهكذا كثير من تفسير السلف يذكرون من النوع مثالاً لينبهوا به على غيره، أو لحاجة المستمع إلى معرفته، أو لكونه هو الذي يعرفه؛ كما يذكرون مثل ذلك في مواضع كثيرة. كقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ (١)، وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ (٢)، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (٣)، وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (٤)، وكذلك تفسير: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ (٥)، و﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (٦)، وغير ذلك وقوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧)، وأمثال ذلك كثير من تفسيرهم هو من باب المثال، ومن ذلك قولهم: إن هذه الآية نزلت في فلان

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٦.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٤) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٥) سورة الفجر: الآية ٣.

(٦) سورة البروج: الآية ٣.

(٧) سورة الذاريات: الآية ٢١.

وفلان، فبهذا يمثل بمن نزلت فيه؛ نزلت فيه أو لا؟، وكان سبب نزولها لا يريدون به أنها آية مختصة به كآية اللعان وآية القذف وآية المحاربة ونحو ذلك، لا يقول مسلم إنها مختصة بمن كان نزولها بسببه، واللفظ العام وإن قال طائفة إنه يقصر على سببه فمرادهم على النوع الذي هو سببه، لم يريدوا بذلك أنه يقتصر على شخص واحد من ذلك النوع"[(١)].

الدراسة:

ذكر ابن الجوزي[(٢)] في هذه الآية سبعة أقوال، تقدم ذكرها في كلام شيخ الإسلام[(٣)]، وإليك بيانها مع ذكر من قال بها من السلف، ومن بعدهم من المفسرين.

القول الأول: قدَّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة؛ وبه قال مجاهد، فقد روي عنه أن قال عند هذه الآية: "هدى الإنسان للشقوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها"[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤٦/١٦ – ١٤٨، وله كلام طويل حول الآية، انظر: ص١٣٩ – ١٥٣.

(٢) انظر: زاد المسير ٢٢٨/٨.

(٣) يعتمد شيخ الإسلام غالباً في حصر الأقوال في الآية على تفسير ابن الجوزي، ويحيل عليه في الغالب، وقد لا يحيل.

(٤) أخرجه ابن جرير ٥٤٣/١٢، وذكره في الدر المنثور ٥٦٦/٦، وعزاه أيضاً لابن أبي حاتم، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

القول الثاني: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها إليه؛ ونسبه لعطاء.

القول الثالث: قَدَّر مدة الجنين في الرحم ثم هدى للخروج[١]؛ ونسبه للسُّدِّي.

القول الرابع: قدَّرهم ذكوراً وإناثاً، وهدى الذكر لإتيان الأنثى؛ ونسبه الثعلبي[٢] لمقاتل، ونسبه الثعلبي[٣] وابن عطية(٤) للكلبي.

قال الفراء: "قدّر خلقه، فهدى الذكر لمأْتى الأنثى من البهائم"[٥].

واختاره ابن قتيبة[٦].

القول الخامس: قدَّر فهدى وأَضَلَّ، فحذف (وأَضَلَّ) لأن في الكلام دليلاً عليه[٧].

قال الفراء: "ويقال: قدّر فهدى وأَضَل، فاكتفى من ذكر الضلال بذكر الهدى لكثرة ما يكون معه"[٨].

---

(١) وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، ابن عطية ٢٨١/١٦.

(٢) في تفسيره ١٨٣/١٠.

(٣) في تفسيره ١٨٣/١٠.

(٤) في تفسيره ٢٨١/١٦.

(٥) معاني القرآن ٢٥٦/٣.

(٦) تأويل مشكل القرآن ص٤٤٤.

(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج ٣١٥/٥.

(٨) معاني القرآن ٢٥٦/٣، وقد نسب إليه هذا القول ابن القيم، والرازي ١٢٧/٣١، وابن عطية ٢٨١/١٦، وشيخ الإسلام، وابن جزي ٥٦٣/٢، وغيرهم مع أنه لم يختره، بل ذكره مؤخراً له بصيغة التمريض.

وقد ردَّ هذا القول شيخ الإسلام كما تقدم، وغيره من المفسرين[١].

القول السادس: قدَّر الأرزاق، وهدى إلى طلبها، ذكره الماوردي، وابن الجوزي.

القول السابع: قدَّر الذنوب، وهدى إلى التوبة[٢].

وقد رجّح شيخ الإسلام عموم الآية – كما تقدم –، ونقل قول ابن عطية: "وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وكل هداية".

وهذا الذي رجحه ابن جرير، حيث قال – بعد أن ذكر الأقوال في الآية: "والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله عمَّ بقوله ﴿ فَهَدَىٰ ﴾، الخبرَ عن هدايته خلقه، و لم يخصص من ذلك معنى دون معنى، وقد هداهم لسبيل الخير والشر، وهدى الذكور لمأتى الإناث، فالخبر على عمومه، حتى يأتي خبر تقوم به الحجة، دالٌّ على خصوصه"[٣].

واختار القول بالعموم جماعة من المفسرين، منهم الزمخشري[٤]، والثعالبي[٥]، وابن جُزي حيث قال: "المعنى: قدَّر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به"، ثم ذكر الأقوال الأخرى في الآية، ثم قال: "وهذه الأقوال

---

(١) قال ابن جزي: "وهذا بعيد"٥٦٣/٢.

(٢) حكاها الثعلبي ١٨٣/١٠، وهناك أقوال أخرى في الآية، انظر: تفسير الثعلبي ١٨٣/١٠، والماوردي ٢٥٢/٦.

(٣) تفسيره ٥٤٣/١٢.

(٤) الكشاف ٢٠٣/٤.

(٥) تفسيره ٥٧٧/٥.

أمثلة، والأول أعمُّ وأرجح، فإن هداية الإنسان وسائر الحيوانات إلى مصالحها باب واسع فيه عجائب وغرائب"[١].

وممن اختار هذا القول، وأن هذه الأقوال المذكورة مثالات أبو حيان[٢].

وممن اختار القول بالعموم ابن القيم، حيث ذكر الأقوال في الآية، ثم قال: "قلت: الآية أعمُّ من هذا كله، وأضعف الأقوال فيها قول الفراء؛ إذ المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه، ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته، وهو نظير قوله ربنا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٣]، فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج والهداية التعليم، والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه، وما ذكر مجاهد فهو تمثيل منه لا تفسير مطابق للآية؛ فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله، ناطقه وبهيمه، طيره ودوابه، فصيحه وأعجمه، وكذلك قول من قال إنه هداية الذكر لإتيان الأنثى تمثيل أيضاً، وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله، وكذلك قول من قال: هداه للمرعى؛ فإن ذلك من الهداية، فإن الهداية إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه والهداية إلى معرفته أمه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبت، والهداية إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها

---

(١) التسهيل ٥٦٣/٢.

(٢) تفسيره ٤٥٣/٨.

(٣) سورة طه: الآية ٥٠.

مراعيها على تباينها، ثم عودها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم"[١].

واختاره ابن كثير، حيث قال: "وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾، أي: قدر قدراً وهدى الخلائق إليه"[٢].

والسعدي وقال: "وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته"[٣].

والشوكاني[٤]، والألوسي[٥]، وابن عاشور[٦].

والراجح – والله أعلم – ما اختاره شيخ الإسلام ومن وافقه من أن هذه الأقوال المذكورة في الآية من باب ذكر المثال، وأن الآية عامة في جميع أنواع الهدايات؛ لعدم الدليل على تخصيص شيء منها، وإذا أمكن حملُ الآية على جميع المعاني المذكورة فيها، فهو أولى.

---

(١) شفاء العليل ص١١٩.

(٢) تفسيره ٥٣٤/٤.

(٣) تفسيره ص٩٢٠.

(٤) تفسيره ٦٠٧/٥.

(٥) تفسيره ١٠٤/٣٠.

(٦) التحرير والتنوير ٢٧٧/٣٠.

سورة الأعلى: الآية ٩

قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [١].

اختار شيخ الإسلام أن الأمر بالتذكير في الآية عام، وأنها مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] ونحوها، وأن التذكير المطلق العام ينفع جميع الناس، فمنهم من يتذكر وينتفع، ومنهم من تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك، فيكون عبرةً لغيره، فيحصل بتذكيره نفع أيضاً، وأن الشرط المذكور في الآية يراد به ما لم ينفع أصلاً، وهو ما لم يؤمر به، كمن أخبر أنه لا يؤمن، وكذلك من لم يصغ إليه ولم يستمع لقوله، وكذلك من ظهر أن الحجة قامت عليه وأنه لا يهتدي، فإنه لا يكرر التبليغ عليه.

وللشيخ كلام طويل على هذه الآية أقتبس بعضه، وأذكر مضمون بعضه الآخر.

قال – رحمه الله –: "فقوله: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ كقوله: إن الذكرى تنفع المؤمنين، وقوله: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ و﴿ إِن ﴾ هي الشرطية. وحكى الماوردي أنها بمعنى (ما)، وهذه تكون (ما) المصدرية، وهي بمعنى الظرف، أي: ذكر ما نفعت، ما دامت تنفع، ومعناها قريب من معنى الشرطية، وأما إن ظن ظان أنها نافية فهذا غلط بيِّن؛ فإن الله لا ينفي نفع الذكرى مطلقاً وهو القائل:

---

(١) سورة الأعلى: الآية ٩.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٥.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، ثم قال: ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وعن[٢]: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾: إن قبلت الذكرى. وعن مقاتل: فذكر وقد نفعت الذكرى. وقيل: ذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع؛ قاله طائفة، أولهم الفراء، واتبعه جماعة، منهم النحاس، والزهراوي[٣]، والواحدي، والبغوي ولم يذكر غيره. قالوا: وإنما لم يذكر الحال الثانية كقوله: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ﴾[٤] وأراد الحر والبرد، وإنما قالوا هذا لأنهم قد علموا أنه يجب عليه تبليغ جميع الخلق وتذكيرهم سواء آمنوا أو كفروا، فلم يكن وجوب التذكير مختصاً بمن تنفعه الذكرى؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[٥]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[٦]، وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٧]، وقال: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٨]، وهذا الذي قالوه [له] معنى صحيح، وهو قول الفراء وأمثاله [لكن] لم يقله

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان ٥٤ – ٥٥.

(٢) قال ابن قاسم: بياض في الأصل.

(٣) هو الإمام الحافظ، محدث الأندلس، أبو حفص، عمر بن عبيد الله الذهلي القرطبي الزهراوي، مات سنة ٤٥٤هـ. تذكرة الحفاظ ١١٢٧/٣، وطبقات الحفاظ ٤٣١/١.

(٤) سورة النحل: الآية ٨١.

(٥) سورة الغاشية: الآيتان ٢١ – ٢٢.

(٦) سورة الزخرف: الآية ٤٤.

(٧) سورة القلم: الآيتان ٥١ – ٥٢.

(٨) سورة الفرقان: الآية ١.

أحد من مفسري السلف، ولهذا كان أحمد بن حنبل ينكر على الفراء وأمثاله ما ينكره ويقول: كنت أحسب الفراء رجلاً صالحاً حتى رأيت كتابه في معاني القرآن.

وهذا المعنى الذي قالوه مدلول عليه بآيات أخر، وهو معلوم بالاضطرار من أمر الرسول فإن الله بعثه مبلغاً ومذكراً لجميع الثقلين الإنس والجن، لكن ليس هو معنى هذه الآية، بل معنى هذه يشبه قوله: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (١)، وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ (٢)، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (٣)، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ (٤)، فالقرآن جاء بالعام والخاص، وهذا كقوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥)، ونحو ذلك، وسبب ذلك أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك، له فاعل وله قابل، فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر، فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير، وإن لم يتعلم و لم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل، فيقال في مثل هذا: علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع، وقد يقال: ما علمته وما ذكرته؛ لأنه لم يحصل تاماً و لم يحصل

---

(١) سورة ق: الآية ٤٥.

(٢) سورة النازعات: الآية ٤٥.

(٣) سورة يس: الآية ١١.

(٤) سورة التكوير: الآيتان ٢٧ – ٢٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢.

مقصوده فينفى لانتفاء كماله وتمامه، وانتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب، فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به، وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا".

وأجاب عن قول من قال: المعنى: إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع قياساً على قوله تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾، بجوابين:

أحدهما: أن تلك الآية ليس فيها حرف شرط عُلق به الحكم بخلاف هذه الآية، وإذا عُلق الأمر بشرط كان مأموراً به في حال وجوده.

الثاني: أن قوله: ﴿ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾، على بابه، وليس في الآية ذكر البرد، وسياق السورة يدل على ذلك.

ثم قال – رحمه الله –: "فقوله: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾، كما قال مفسرو السلف والجمهور على بابها، قال الحسن: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر"(١).

ثم بيّن أن هذه الآية لا تمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجوه:

أحدها: أنه لم يخص قوما دون قوم لكن قال: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ وهذا مطلق بتذكير كل أحد، وقوله: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾، لم يقل: إن نفعت كل أحد، بل أطلق النفع، فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع، والتذكير المطلق العام ينفع، فإن

---

(١) لم أجده.

من الناس من يتذكر فينتفع به والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك فيكون عبرة لغيره فيحصل بتذكيره نفع أيضا فإن قيل: فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع فأي فائدة في التقييد؟ قيل: بل منه ما لم ينفع أصلاً وهو ما لم يؤمر به، وذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن؛ فإنه لا يخص بتذكير بل يعرض عنه، وكذلك كل من لم يصغ إليه ولم يستمع لقوله فإنه يعرض عنه كما قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الوجه الثاني: أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع كما هو أمر بالتذكير المشترك، وهذا التام النافع يخص به المؤمنين المنتفعين، فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل وكلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به ويذكرهم بمعانيه ويذكرهم [بما] نزل قبل ذلك، بخلاف الذين قال فيهم: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [1]، فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت عليهم وهم معرضون عن التذكرة لا يسمعون، فيكون مأموراً أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيرا يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة...".

الوجه الثالث: أن قوله: ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يتناول التذكر والتذكير، فإنه قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، فلا بد أن يتناول ذلك تذكيره، ثم قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ

(١) سورة المدثر: الآيات ٤٩ – ٥١.

﴿ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾[١]، والذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى، وهو التذكر، فضمير الذكرى هنا يتناول التذكر؛ وإلا فمجرد التذكير الذي قامت به الحجة لم يتجنبه أحد، لكن قد يراد بتجنبها أنه لم يستمع إليها ولم يصغ كما قال: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾[٢]، والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر لا بنفس الاستماع، فتذكيره نافع لا محالة كما تقدم وهذا يناسب الوجه الأول.

وقد ذكر بعضهم أن هذا يراد به توبيخ من لم يتذكر من قريش قال ابن عطية: اختلف الناس في معنى قوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ فقال الفراء والنحاس والزهراوي: معناه (وإن لم تنفع) فاقتصر على الاسم الواحد لدلالته على الثاني.

قال: وقال بعض الحذاق: قوله: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ اعتراض بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش، أي:إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا كنحو قول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ** ولكن لا حياة لمن تنادي

وهذا كله كما تقول لرجل: (قل لفلان واعذله إن سمعك) إنما هو توبيخ للمشار إليه.

قلت: هذا القائل هو الزمخشري وهذا القول فيه بعض الحق؛ لكنه أضعف

---

(١) سورة الأعلى: الآيتان ١٠ – ١١.

(٢) سورة فصلت: الآية ٢٦.

من ذاك القول من وجه آخر، فإن مضمون هذا القول أنه مأمور بتذكير من لا يقبل ولا ينفع بالذكرى دون من يقبل كما قال: إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، وكما أنشده في البيت. ثم البيت الذي أنشده خبر عن شخص خاطب آخر، فيقول: لقد أسمعت لو كان من تناديه حياً، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [(١)]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [(٣)]، فهذا يناسب معنى البيت وهو خبر خاص، وأما الأمر بالإنذار فهو مطلق عام، وإن كان مخصوصا فالمؤمنون أحق بالتخصيص كما قال: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وقال: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ليس الأمر مختصاً بمن لا يسمع، كيف وقد قال بعد ذلك: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ فهذا الذي يخشى هو ممن أمره بتذكيره وهو ينتفع بالذكرى، فكيف لا يكون لهذا الشرط فائدة إلا ذم من لم يسمع؟ وأما قول القائل: (قل لفلان واعذله إن سمعك)، فهذا وأمثاله يقوله الناس لمن يظنون أنه لا يقبل ولكن يرجون قبوله، فهم يقصدون توبيخه على تقدير الرد لا على تقدير القبول، فيقولون: (قل له إن كان يسمع منك) و(قل

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٠.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٤٥.

له إن كان يقبل) و(انصحه إن كان يقبل النصيحة) وهو كله من هذا الباب...".

ثم ذكر أن التذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره، وأن فيه ما يَخُصُّ ويَعمُّ[1].

الدراسة:

اختلف المفسرون في معنى الآية على أقوال ستة:

القول الأول: أن الأمر بالتذكير في الآية عام لجميع الناس، وأن المراد بالشرط من عُلم عدم انتفاعه بالذكرى بعد تبليغه، وقيام الحجة عليه، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام كما تقدم، وبنحو قوله قال بعض المفسرين، وإليك نصوصاً من كلامهم.

قال ابن جرير: "وقوله ﴿فَذَكِّرۡ﴾، أمر من الله لنبيه ﷺ بتذكير جميع الناس، ثم قال: إن نفعت الذكرى هؤلاء الذين قد آيستك من إيمانهم"[2].

واختار ابن عاشور أن الأمر بالتذكير عام، وأن الشرط في الآية فيه تعريض بأن في القوم من لا تنفعه الذكرى، وإليك نص كلامه في هذا: "وجملة ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ معترضة بين الجملتين المعلّلة وعِلتها، وهذا الاعتراض منظور فيه إلى العموم الذي اقتضاه حذف مفعول ﴿فَذَكِّرۡ﴾ أي فدم على تذكير

(١) مجموع الفتاوى ١٥٣/١٦ – ١٩٤، بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن جرير ٥٤٥/١٢.

الناس كلهم إن نفعت الذكرى جميعهم، أي: وهي لا تنفع إلا البعض وهو الذي يؤخذ به من قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الآية.

فالشرط في قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ جملة معترضة، وليس متعلقاً بالجملة ولا تقييداً لمضمونها؛ إذ ليس المعنى: فذكر إذا كان للذكرى نفع، حتى يفهم منه بطريق مفهوم المخالفة: أن لا تُذَكِّر إذا لم تنفع الذكرى، إذ لا وجه لتقييد التذكير بما إذا كانت الذكرى نافعة؛ إذ لا سبيل إلى تعرف مواقع نفع الذكرى، ولذلك كان قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ مؤولاً بأن المعنى فذكر بالقرآن، فيتذكر من يخاف وعيد، بل المراد فذكِّر كافة إن كانت الذكرى تنفع جميعَهم، فالشرط مستعمل في التشكيك لأن أصل الشرط بـ(إنْ) أن يكون غير مقطوع بوقوعه، فالدعوة عامة وما يعلمه الله من أحوال الناس في قبول الهدى وعدمه أمر استأثر الله بعلمه، فأبو جهل مدعو للإيمان والله يعلم أنه لا يؤمن لكن الله لم يخصّ بالدعوة من يرجى منهم الإيمان دون غيرهم، والواقع يكشف المقدور، وهذا تعريض بأن في القوم من لا تنفعه الذكرى..."[1].

وللشنقيطي في الآية رأي يشبه رأي شيخ الإسلام حيث قال: "هذه الآية الكريمة يفهم منها أن التذكير لا يطلب إلا عند مظنة نفعه، بدليل (إن) الشرطية، وقد جاءت آيات كثيرة تدل على الأمر بالتذكير مطلقاً، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ

(١) تفسيره ٣٠/٢٨٤.

أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [١]، وأجيب عنها بأجوبة كثيرة"، ثم ذكرها - وقد تقدم ذكرها في الأقوال والنقول السابقة -، ثم قال: "والذي يظهر لمقيد هذه الحروف - عفا الله عنه -، هو بقاء الآية الكريمة على ظاهرها، وأنه ﷺ بعد أن يكرر للذكرى تكريراً تقوم به حجة الله على خلقه، مأمور بالتذكير عند ظن الفائدة، أما إذا عَلم الفائدة[٢] فلا يؤمر بشيء هو عالم أنه لا فائدة فيه؛ لأن العاقل لا يسعى إلى ما لا فائدة فيه.

وقد قال الشاعر:

لما نافع يسعى اللبيب فلا تكن ** لشيء بعيد نفعه الدهر ساعيا

وهذا ظاهر، ولكن الخفاء في تحقيق المناط، وإيضاحه أن يقال: بأي وجه يتيقن عدم إفادة الذكرى، حتى يباح تركها.

وبيان ذلك أنه تارة يعلمه بإعلام الله به، كما وقع في أبي لهب، حيث قال تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ [٣]، فأبو لهب هذا وامرأته لا تنفع فيهما الذكرى؛ لأن القرآن نزل بأنهما من أهل النار بعد تكرار التذكير لهما، تكراراً تقوم عليهما به الحجة، فلا يلزم النبيّ ﷺ بعد علمه بذلك أن يذكرهما بشيء لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

وتارة يعلم ذلك بقرينة الحال، بحيث يبلغ على أكمل وجه، ويأتي

---

(١) سورة القمر: الآية ١٧.

(٢) هكذا في الأصل، ولعله: إذا علم عدم الفائدة.

(٣) سورة المسد: الآيتان ٣ – ٤.

بالمعجزات الواضحة، فيعلم أن بعض الأشخاص عالم بصحة نبوته، وأنه مصر على الكفر عناداً ولجاجاً، فمثل هذا لا يجب تكرير الذكرى له دائماً، بعد أن تكرر عليه تكريراً تلزمه به الحجة"[١].

القول الثاني: أن (إن) شرطية، والمعنى: إن قبلت الذكرى[٢]، قال ابن كثير: "أي: ذكِّر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله"[٣].

واختار هذا القول السعدي، وقال: "﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾، أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه، ومفهوم الآية: أنه إن لم تنفع الذكرى بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهياً عنها"[٤].

القول الثالث: أن (إن) شرطية، والمعنى: إن نفعت وإن لم تنفع(٥)، ونُسب إلى الفراء[٦].

واختاره الواحدي أيضاً، وقال: "والمعنى: إن نفعت أو لم تنفع؛ لأن النبي ﷺ

---

(١) دفع إيهام الاضطراب ص٢١٢، وانظر: تفسير جزء عمَّ للعثيمين ص١٦٤.

(٢) ذكره ابن الجوزي ٢٢٩/٨.

(٣) تفسيره ٥٣٤/٤.

(٤) تفسيره ص٩٢٠.

(٥) ذكره ابن الجوزي ٢٢٩/٨.

(٦) نسبه إليه ابن عطية ٢٨٣/١٦، وشيخ الإسلام كما تقدم، وأبو حيان ٤٥٤/٨، والسَّمين في الدر ٧٦٣/١٠ وغيرهم، وليس في معانيه.

بعث مبلغاً للإعذار والإنذار، فعليه التذكير في كل حال، نفع أو لم ينفع، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ الآية، وقد نبه الله تعالى على تفصيل الحالتين بقوله ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ سيتعظ بالقرآن من يخشى الله ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتجنب الذكرى ﴿ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ العظيمة الفظيعة؛ لأنها أعظم وأشد حراً من نار الدنيا"[١]،

واختاره أيضاً البغوي، وقال: "والمعنى: نفعت أو لم تنفع، ولم يذكر الحالة الثانية، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، وأراد الحر والبرد جميعاً"[٢].

كما اختاره الشوكاني[٣]، وممن قال به الزهراوي، والنحاس[٤].

وقد رده شيخ الإسلام كما تقدم، وقال عنه ابن جزي: "وهذا بعيد، وليس عليه الرونق الذي على الأول"[٥]، وضعَّفه ابن عاشور[٦].

القول الرابع: أنها بمعنى (ما)، والتقدير: فذكر ما نفعت الذكرى[٧].

وتقدم قول شيخ الإسلام إن (ما) هنا مصدرية، وهي بمعنى الظرف، أي: ما

---

(١) الوسيط ٤/٤٧٠.

(٢) تفسيره ٤/٤٧٦.

(٣) فتح القدير ٥/٦٠٨.

(٤) نسبه إليهما ابن عطية ١٦/٢٨٣، وأبو حيان ٨/٤٥٤،وشيخ الإسلام، وغيرهم، وقد ذكر النحاس هذا القول في الإعراب ٥/٢٠٦ مع قول آخر يأتي ذكره ولم يرجح.

(٥) تفسيره ٢/٥٦٤.

(٦) التحرير والتنوير ٣٠/٢٨٥.

(٧) ذكره الماوردي ٦/٤٥٤، وابن الجوزي ٨/٢٢٩.

دامت تنفع الذكرى، وأن معناها قريب من معنى الشرطية، وعلى هذا يكون هذا القول بمعنى القول الأول.

القول الخامس: أنها بمعنى (قد)، والتقدير: قد نفعت الذكرى، قاله مقاتل[١].

قال السَّمين: "وهو بعيد جداً"[٢].

وذكر النحاس في الإعراب جواباً آخر: "أن الذكرى تنفع بكل حالٍ فيكون المعنى: فذكر إن كنت تفعل ما أمرت به"[٣].

وقال السمعاني: "فإن قال قائل: كيف قال: إن نفعت الذكرى، وهو مأمور بالتذكير على العموم، نفعت أو لم تنفع؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أن معنى قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، إذْ نفعت الذكرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [٤]، ومعناه: إذ كنتم مؤمنين، والوجه الثاني: ذكِّر بكل حال، فقد نفعت الذكرى، فهو تعليق بمتحقق، والمعنى: إن نفعت، وقد نفعت"[٥].

القول السادس: أن قوله تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ اعتراض بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش، والمعنى: إن نفعت هؤلاء الطغاة العتاة،

---

(١) ذكره عنه ابن الجوزي ٢٢٩/٨.

(٢) الدر المصون ٧٦٣/١٠.

(٣) إعراب القرآن ٢٠٦/٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٥) تفسير السمعاني ٢١٠/٦، وانظر: الدر المصون ٧٦٣/١٠.

وهـــذا قول الزمخشري[١]، وتقدم إيراد الشيخ له واعتراضُه عليه.

واختار هذا القول أيضاً بعض المفسرين، منهم ابن جزي[٢].

قال الزمخشري: "فإن قلت كان الرسول ﷺ مأموراً بالذكرى نفعـــت أو لم تنفع فما معنى اشتراطه النفع؟ قلت: هو على وجهين:

أحدهما: أن رسول الله ﷺ قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم ومـــا كـــانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتواً وطغياناً، وكان النبي ﷺ يتلظـــى حســـرة وتلهفاً ويزداد جداً في تذكيرهم وحرصاً عليه، فقيـــل لـــه: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[٣]، وأعرض عنهم وقل سلام، وذكر إن نفعت الذكرى، وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير.

والثاني: أن يكون ظاهره شرطاً ومعناه ذمَّاً للمذكرين وإخباراً عن حـــالهم واستبعاداً لتأثير الذكرى فيهم وتسجيلاً عليهم بالطبع على قلوبهم، كما تقـــول للواعظ: عظ المكاسين إن سمعوا منك؛ قاصداً بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنـــه لن يكون ﴿ سَيَذَّكَّرُ ﴾ فيقبل التذكرة وينتفع بها ﴿ مَن يَخۡشَىٰ ﴾ الله وســـوء العاقبة فينظر حتى يقوده ويفكر النظر إلى اتباع الحق فأمّا هؤلاء فغير خاشين ولا ناظرين فلا تأمل أن يقبلوا منك"[٤].

---

(١) حكاه ابن عطية عن بعض الحذاق، قال شيخ الإسلام يريد بذلك الزمخشـــري، ويـــأتي كـــلام الزمخشري بنصه، فابن عطية ذكر مضمونه.

(٢) تفسيره ٥٦٤/٢، وانظر: الدر المصون ٦٧٣/١٠.

(٣) سورة ق: الآية ٤٥.

(٤) تفسيره ٢٠٤/٤، وانظر: الألوسي ١٠٦/٣٠.

وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ كقوله - جل ثناؤه -: سيذكر يا محمد إذا ذكَّرتَ الذين أمرتك بتذكيرهم من يخشى الله، ويخاف عقابه ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ يقول: ويتجنب الذكرى ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، يعني أشقى الفريقين ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [1] وهم الذين لم تنفعهم الذكرى"[2].

والراجح - والله أعلم - ما ذهب إليه شيخ الإسلام والشنقيطي، ومن وافقهما وأن الأمر بالتذكير في الآية عام، كما ورد في آيات أخرى، إلا ما علم النبي ﷺ أنه لا ينتفع وتقدم ذكر الأمثلة على ذلك؛ لأن هذا هو الذي دل عليه القرآن.

---

(١) سورة الأعلى: الآية ١٢.

(٢) تفسيره ٥٤٦/١٢، وانظر: الرازي ١٣١/٣١، فقد ذكر وجوهاً أخرى.

سورة الغاشية: الآيات ٢ - ٤

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن المعنى أنها تخشع يوم القيامة، وتعمل وتنصب.

قال - رحمه الله -: "قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فيها قولان:

أحدهما: أن المعنى وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة تصلى يوم القيامة نارا حامية ويعني بها عباد الكفار كالرهبان وعباد البدود[٢] وربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج.

والقول الثاني: أن المعنى أنها يوم القيامة تخشع أي تذل وتعمل وتنصب.

قلت: هذا هو الحق لوجوه:

أحدها: أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه، أي: وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية، وعلى الأول لا يتعلق إلا بقوله: ﴿تَصْلَىٰ﴾ ويكون قوله: ﴿خَاشِعَةٌ﴾ صفة للوجوه قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى متأخرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نارا حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل؛ فالأصل إقرار الكلام على نظمه

---

(١) سورة الغاشية: الآيات ٢ – ٤.

(٢) البُدود: جمع بُدّ، وهو الصنم. انظر: المعجم الوسيط ٤٣/١.

وترتيبه، لاتغيير ترتيبه، ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة أما مع اللبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير؛ بل القرينة تدل على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هـــذا الخطاب خلاف البيان، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق.

الوجه الثاني: أن الله قد ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في الســـورة فقال بعد ذلـــك: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ ﴾[1]، ومعلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا؛ إذ هذا ليس بمدح فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين لا اختلافهما وحينئـــذ فيكـــون الأشقياء وصفت وجوههم بحالها في الآخرة.

الثالث: أن نظير هذا التقسيم قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾[3]، وهذا كله وصف للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا.

الرابع: أن وصف الوجوه بالأعمال ليس في القرآن وإنما في القرآن ذكر

---

(١) سورة الغاشية: الآيات ٨ – ١٠.

(٢) سورة القيامة: الآيات ٢٢ – ٢٥.

(٣) سورة عبس: الآيات ٣٨ – ٤٢.

العلامة كقوله: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾[١]، وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾[٣]، وذلك لأن العمل والنصب ليس قائما بالوجوه فقط؛ بخلاف السيما والعلامة.

الخامس: أن قوله: ﴿ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم، فإن هذا إلى المدح أقرب، وغايته أنه وصف مشترك بين عباد المؤمنين، وعباد الكفار، والذم لا يكون بالوصف المشترك، ولو أريد المختص لقيل: خاشعة للأوثان مثلاً، عاملة لغير الله، ناصبة في طاعة الشيطان، وليس في الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصاً بالكفار ولا كونه مذموماً، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً، ولا وعيد عليه، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن.

السادس: أن هذا الوصف مختص ببعض الكفار، ولا موجب للتخصيص؛ فإن الذين لا يتعبدون من الكفار أكثر، وعقوبة فساقهم في دينهم أشد في الدنيا والآخرة؛ فإن من كف منهم عن المحرمات المتفق عليها وأدى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع الله إلها آخر ويقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٠.

(٣) سورة الحج: الآية ٧٢.

ويزنون، فإذا كان الكفر والعذاب على هذا التقدير في القسم المتروك أكثر وأكبر؛ كان هذا التخصيص عكس الواجب.

السابع: أن هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة والنسك ابتداء، ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة وليس في الخطاب تقييد كان هذا سعياً في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه"[١].

وقال – رحمه الله – أيضاً عند هذه الآيات: "وهذا يكون يوم القيامة، وهو الصواب من القولين بلا ريب، كما قال في القسم الآخر: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾"[٢].

الدراسة:

قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة[٣]، وقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، والمراد بالوجوه: أصحابها، قال الرازي: "المراد بالوجوه أصحاب الوجوه، وهم الكفار، بدليل أنه تعالى وصف الوجوه بأنها خاشعة عاملة ناصبة، وذلك من صفات المكلف، لكن الخشوع يظهر في الوجه، فعلقه بالوجه لذلك، وهو كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، وقوله: ﴿خَاشِعَةٌ﴾ أي ذليلة، قد عراهم الخزي والهوان، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٢١٧ – ٢٢٠.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٢/٥٥٧.

(٣) وهذا مروي عن قتادة، أخرجه ابن جرير ١٢/٥٥١، وانظر: معاني القرآن للزجاج ٥/٣١٧، وابن عطية ١٦/٢٨٦.

﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾[١]، وقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾[٢]، وإنما يظهر الذل في الوجه لأنه ضد الكبر الذي محله الرأس والدماغ، وأما العاملة فهي التي تعمل الأعمال، ومعنى النَّصب: الدؤوب في العمل مع التعب"[٣].

وقد اختلف المفسرون في معنى الآيتين على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها خاشعة، أي: ذليلة يوم القيامة، عاملة في النار ناصبة فيها.

قال قتادة: "خاشعة في النار"[٤].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: "﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فإنها تعمل وتنصب في النار"[٥].

وعن الحسن أنه قال: "أنه قرأ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قال: لم تعمل لله في الدنيا، فأعملها في النار"[٦].

وعن قتادة أنه قال عند هذه الآية: "تكبَّرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٢.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٥.

(٣) تفسيره ١٣٨/٣١، وانظر: إعراب القرآن للنحاس ٢١٠/٥، وتفسير الثعلبي ١٨٧/١٠، والوسيط للواحدي ١٧٣/٤، وابن عطية ٢٨٦/١٦، والنسفي ٧٩٩/٢.

(٤) أخرجه ابن جرير ٥٥١/١٢، وابن أبي حاتم ٣٤٢٠/١٠ بلفظ: "ذليلة في النار".

(٥) أخرجه ابن جرير ٥٥١/١٢، وهي رواية العوفي عنه.

(٦) أخرجه ابن جرير ٥٥١/١٢.

وأنصبها في النار"[١].

وعن أبي زيد في قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قال: "لا أحدَ أنصبُ ولا أشدُّ من أهل النار"[٢].

وعن سعيد بن جبير: "﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، قال: يعني في الآخرة"[٣]، وعنه أنه قال: "لم تعمل لله - سبحانه وتعالى - في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار لمعالجة السلاسل والأغلال"[٤].

وقال الضحاك: "يكلفون ارتقاء جبل في النار"[٥].

واختاره بعض المفسرين، وممن اختاره البيضاوي[٦]، وابن عاشور[٧].

قال النحاس عن هذا القول: "فعلى هذا يكون ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ من نعت ﴿خَاشِعَةٌ﴾ أو يكون خبراً، وهذا جواب حسن؛ لأنه لا يحتاج فيه إلى إضمار ولا تقديم ولا تأخير".

وقد استدل شيخ الإسلام لهذا القول بوجوه تقدم ذكرها.

---

(١) أخرجه ابن جرير ٥٥١/١٢، وابن أبي حاتم ٣٤٢٠/١٠، وعبد الرزاق ٤٢٠/٣ [ط محمود عبده]، بلفظ: "خاشعة في النار، عاملة ناصبة في النار".

(٢) أخرجه ابن جرير ٥٥١/١٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٣٤٢٠/١٠، وقال الثعلبي ١٨٧/١٠: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة، وقيل: في النار.

(٤) ذكره عنه الثعلبي ١٨٧/١٠.

(٥) ذكره الثعلبي ١٨٧/١٠.

(٦) تفسيره ٥٩١/٢.

(٧) تفسيره ٢٩٦/٣٠ - ٣٠٣.

وقال السعدي: "﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أي: تاعبة في العذاب، تُجرُّ على وجوهها، وتغشى وجوههم النار، وهذا هو الصواب المقطوع به؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال – أي المراد بها عاملة في الدنيا – جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا"[(١)].

القول الثاني: أن المعنى: وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة، والمراد بها وجوه الكفار[(٢)].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: "يعني اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها"[(٣)]، وعنه – رضي الله عنه – أنه قال: "النصارى"[(٤)]،

---

(١) تفسيره ص٩٢٢.

(٢) ذكرابن الجوزي ٢٣٣/٨ عن يحيى بن سلام أنه جميع الكفار.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٣٤٢٠/١٠، وقال الحافظ في الفتح ٧٠٠/٨ [ط السلفية]: "وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة ومن طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس وزاد: اليهود"وذكرها الثعلبي ١٨٨/١٠، وقال: "وهي رواية أبي الضحى عنه"، وذكر الواحدي في الوسيط ٤٧٣/٤ عن عطاء عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: "يعني الذي عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم لا يقبل الله منهم إلا ما كان لوجهه خالصاً، لا يقبل اجتهاداً في بدعة وضلالة، ولكنه يقبل رفقاً في سنة"وهذا قول سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، وأبي الضحى عن ابن عباس، قالوا: هم الرهبان أصحاب الصوامع.

(٤) ذكره البخاري في صحيحه ٧٠٠/٨ [ط السلفية].

وروي عن سعيد بن جبير وزيد بن أسلم[١].

وعن أبي عمران الجوني قال: "مر عمر بن الخطاب براهب فوقف، فَنُودي الراهب، فقيل له: هذا أمير المؤمنين، قال فاطّلع فإذا إنسان به من الضُّر والاجتهاد وترك الدنيا، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: إنه نصراني، فقال: قد علمت، ولكني رحمته، ذكرت قول الله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾، فرحمت نصبه واجتهاده، وهو في النار"[٢].

قال ابن عطية: "لأنها على غير هدى، فلا ثمرة لعملها إلا النصب، وخاتمته في النار، قالوا: والآية في القسيسين، وعبدة الأوثان، وكل مجتهد في كفر"[٣].

وقال القاسمي: "ويؤيده مقابلة هذه الآية لقوله في أهل الجنة: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ وذلك السعي هو الذي كان في الدنيا"[٤].

ويستدل لهذا القول بأن الآخرة ليست دار عمل[٥].

القول الثالث: أن المعنى: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار يوم

---

(١) ذكره عنهما الثعلبي ١٠/١٨٧، والواحدي في الوسيط ٤/٤٧٣، وابن الجوزي ٨/٢٣٣.

(٢) أخرجه عبدالرزاق ٣/٤٢٠ [ط محمود عبده]، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٤/٤٧١، والحاكم ٢/٥٢٢، وقال: "هذه حكاية في وقتها، فإن أبا عمران الجوني لم يدرك زمان عمر"، وذكره في الدر ٦/٥٧٣، وعزا أيضاً لابن منذر، وذكره ابن كثير في تفسيره ٤/٥٧٣، وعزاه للبرقاني.

(٣) تفسير ابن عطية ١٦/٢٨٦.

(٤) تفسيره ١٧/١٣٤.

(٥) انظر: تفسير القرطبي ١٩/١٩.

القيامة؛ وبه قال عكرمة[١]، والسدي[٢].

قال الرازي: "الوجه الثالث: وهو أن بعض تلك الصفات حاصل في الآخرة، وبعضها في الدنيا، ففيه وجوه:

أحدها: أنها خاشعة في الآخرة، مع أنها كانت في الدنيا عاملة ناصبة، والمعنى: أنها لم تنتفع بعملها ونصبها في الدنيا...

ثانيها: أنها خاشعة عاملة في الدنيا، ولكنها ناصبة في الآخرة؛ فخشوعها في الدنيا: خوفها الداعي لها إلى الإعراض عن لذائذ الدنيا وطيباتها، وعملها هو صلاتها وصومها، ونصبها في الآخرة: هو مقاساتها العذاب"[٣].

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول، لقوة أدلته، ويؤيده القاعدة الترجيحية: القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عدم ذلك[٤]، وقد استدل بها شيخ الإسلام، كما في الوجه الثالث.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/٣٤٢٠، وذكره الثعلبي ١٠/١٨٧، وانظر: الدر ٦/٥٧٣.

(٢) ذكره عنه الثعلبي ١٠/١٨٧، والسمعاني ١٦/٢١٢، وابن كثير ٤/٥٣٧.

(٣) تفسيره ٣١/١٣٨.

(٤) انظر: قواعد الترجيح ١/١٧٨، ١٨٥.

سورة البلد: الآية ١٠

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى هذه الآية: بيَّنَّا له طريق الخير والشر.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "قال عامة السلف والخلف: المراد بـ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ طريق الخير والشر، وضعَّف قول من قال: المراد بهما: الثديان فقط، وضعَّف إسناده عن علي وغيره.

وضعَّف أيضاً قول من قال: المراد التنويع، فهدى قوماً لطريق الخير، وقوماً لطريق الشر"[٢].

وقال – رحمه الله – عند هذه الآية أيضاً: "قال علي وابن مسعود: سبيل الخير والشر، وعن ابن عباس: سبيل الهدى والضلال. وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة، أي فطرناه على ذلك، وعرَّفناه إياه، والجميع واحد، والنجدان الطريقان الواضحان، والنجدُ المرتفع من الأرض، فالمعنى ألم نعرِّفه طريق الخير والشر ونُبيِّنْه له كتَّبيين الطريقين العاليين"[٣].

---

(١) سورة البلد: الآية ١٠.

(٢) ذكر ذلك ابن عبد الهادي في اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية له ص٦٥ ضمن آثار شيخ الإسلام ابن تيمية التي أخرجتها مؤسسة الراجحي.

(٣) مجموع الفتاوى ٥٨٠/١٠، وانظر ١٤٣/١٦.

الدراسة:

اختلف المفسِّرون في معنى هذه الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المعنى هديناه سبيل الخير والشر، قال ابن مسعود: "سبيل الخير، وسبيل الشر"(١)، وعن ابن عباس مثله(٢)، وعنه: "الهدى والضلالة"(٣)، وبهذا القول

قال مجاهد(٤)، وعكرمة(٥)، والضحاك(٦)، وُروى مرفوعاً(٧).

واختاره الفراء(٨)، وشيخ الإسلام كما تقدم، وابن جرير، وقال: "وأولى القولين بالصواب في ذلك عندنا قول من قال: عُنى بذلك طريق الخير، والشر، وذلك أنه لا قول في ذلك نعلمه غير القولين اللذين ذكرنا [الأول والثاني]، والثديان وإن كانا سبيلي اللبن، فإن الله – تعالى ذكره – إذْ عدّد على العبد

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٤٢٩/٣، وابن جرير ٥٩٠/١٢ - ٥٩١ من طرق، والحاكم ٥٢٣/٢ وصححه، وانظر: الدر ٥٩٥/٦.

(٢) أخرجه ابن جرير ٥٩١/١٢.

(٣) أخرجه ابن جرير ٥٩١/١٢، الدر ٥٩٥/٦.

(٤) أخرجه ابن جرير ٥٩١/١٢، وانظر: الدر ٥٩٥/٦.

(٥) أخرجه ابن جرير ٥٩١/١٢.

(٦) أخرجه ابن جرير ٥٩١/١٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٤٢٩/٣، وابن جرير ٥٩١/١٢ – ٥٩٢ عن الحسن مرسلاً من طرق، وأخرجه ابن جرير ٥٩٢/١٢ عن قتادة مرسلاً، وذكره السيوطي في الدر ٥٩٥/٦ عن أبي هريرة مرفوعاً، وعزاه لابن مردويه.

(٨) معاني القرآن ٢٦٤/٣.

نعمه بقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[١] إنما عدَّد عليه هدايته إياه إلى سبيل الخير من نعمه، فكذلك قوله: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[٢].

واختاره الزجاج[٣]، ونسبه الثعلبي لأكثر المفسرين[٤]، والسمعاني ونسبه لأكثر المفسرين[٥]، والبغوي ونسبه لأكثر المفسرين[٦]، والرازي ونسبه لعامة المفسرين[٧]، والقرطبي[٨]، وابن جزي[٩]، والشوكاني[١٠]، والقاسمي[١١]، والسعدي[١٢]، وابن عاشور[١٣].

القول الثاني: أن المعنى: وهديناه الثَّديين، سبيلي اللّبن الذي يتغذى به،

---

(١) سورة الإنسان: الآيتان ٢ – ٣.

(٢) تفسيره ٥٩٢/١٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣٢٩/٥.

(٤) تفسيره ٢٠٩/١٠.

(٥) تفسيره ٢٢٨/٦.

(٦) معالم التنْزيل ٤٨٩/٤.

(٧) تفسيره ١٦٦/٣١.

(٨) تفسيره ٤٤/٢٠.

(٩) تفسيره ٥٧٤/٢.

(١٠) تفسيره فتح القدير ٦٣٨/٥.

(١١) تفسيره ١٥٨/١٧.

(١٢) تفسيره ص٩٢٥.

(١٣) التحرير والتنوير ٣٥٤/٠.

وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –[١]، والضحاك[٢]، لأنهما كالطريقين لحياة الولد[٣].

وقد ردَّ هذا التفسير الربيع بن خُثيم[٤] وقال: "أما إنهما ليسا بالثديين"[٥].

القول الثالث: أن المراد التنويع، فهدى قوماً لطريق الهدى، وقوماً لطريق الضلال. وهذا القول ذكره شيخ الإسلام كما تقدم، ولم أره في كتب التفسير، وسبق قول ابن جرير: "لا قول في ذلك نعلمه غير القولين اللذين ذكرنا"، ولعلَّه لبعض أهل الكلام.

والراجح – والله أعلم – القول الأول لدلالة القرآن عليه، ولأنه قول عامة المفسرين، وأما القول الثاني فلم يثبت عن ابن عباس، بل الثابت عنه الأول.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٤٢٩/٣، وابن جرير ٥٩٢/١٢، والثعلبي ٢٠٩/١٠، وانظر: الدر ٥٩٥/٦.

(٢) أخرجه ابن جرير ٥٩٢/١٢.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٤٤/٢٠.

(٤) هو الربيع بن خُثيم بن عائذ، أبو يزيد الثوري الكوفي، الإمام القدوة العابد، أحد الأعلام، أدرك زمن النبي ﷺ، وكان يعد من عقلاء الرجال، توفي قبل سنة ٦٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٥٨/٤، وتهذيب التهذيب ٢٤٢/٣.

(٥) أخرجه ابن جرير ٥٩١/١٢.

سورة الشمس: الآيتان ٣ - ٤

قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن الضمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿ جَلَّىٰهَا ﴾ ﴿يَغۡشَىٰهَا ﴾ يعود إلى الشمس.

قال ــ رحمه الله ــ عند هذه الآية: "وضمير التأنيث في ﴿ جَلَّىٰهَا ﴾ و﴿يَغۡشَىٰهَا ﴾ لم يتقدم ما يعود عليه إلا الشمس فيقتضي أن النهار يجلي الشمس، وأن الليل يغشاها، والتجلية: الكشف والإظهار، والغشيان: التغطية واللبس"[٢].

الدراسة:

اختلف المفسرون في مرجع الضمير المؤنث المنصوب في الآيتين، وإليك بيان ذلك بالتفصيل فيهما:

المسألة الأولى: اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ على ثلاثة أقوال[٣]:

---

(١) سورة الشمس: الآيتان ٣ – ٤.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٢٦/١٦.

(٣) هذه الأقوال المشهورة في الآية، وهناك أقوال أخرى تأتي الإشارة إليها.

القول الأول: أنه يعود إلى الشمس؛ وروي عن مجاهد[١]، وقتادة[٢].

وقد أيد الرازي هذا القول بالآية التي بعدها، فقال: "قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ يعني يغشى الليلُ الشمسَ فيزيل ضوءها، وهذه الآية تقوِّي القول الأول في الآية التي قبلها من وجهين:

الأول: أنها لما جعل الليل يغشى الشمس ويزيل ضوءها حسُن أن يقال: النهار يجليها، على ضد ما ذكر في الليل.

الثاني: أن الضمير في ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ للشمس بلا خلاف[٣]، فكذا في ﴿جَلَّىٰهَا﴾ يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير في الفواصل من أول السورة إلى ههنا للشمس"[٤].

قال ابن جرير بعد أن حكى هذا القول: "والصواب عندي في ذلك ما قال أهلُ العلم الذين حكينا قولهم؛ لأنهم أعلمُ بذلك وإن كان للذي قاله من ذكرنا قوله من أهل العربية وجه"[٥]، ومراده بأهل العلم مجاهد وقتادة.

وقال الزمخشري: "عند انتفاخ النهار وانبساطه؛ لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام

---

(١) أخرجه ابن جرير ٤٣٦/٢٤ [ط التركي]، وابن أبي حاتم ٣٤٣٧/١٠ حيث قال: "إذا غشيها النهار"، وانظر: زاد المسير ٢٥٧/٨.

(٢) أخرجه ابن جرير ٤٣٦/٢٤ [ط التركي] حيث قال: "إذا غشيها النهار".

(٣) وهذا غير مسلّم، فقد نُقل الخلاف في ذلك، إلا إن كان مراده لم ينقل عن السلف.

(٤) انظر: تفسير الرازي ١٩١/٣١.

(٥) تفسيره ٤٣٧/٢٤ [ط التركي].

الانجلاء"[١].

وقال الألوسي عن هذا القول: "أولى لذكر المرجع، واتساق الضمائر"[٢].

واختاره جمهور المفسرين، وممن اختاره ابن جرير[٣]، والثعلبي[٤]،وشيخ الإسلام كما تقدم والسهيلي[٥]، والزمخشري[٦]، والألوسي[٧]، والقاسمي[٨]، وابن عاشور[٩].

القول الثاني: أنه يعود إلى الظُّلمة، والمعنى: إذا كشف الظُّلمةَ، قال الفراء: "جلّى الظلمة، فجاز الكناية عن الظلمة، و لم تذكر؛ لأن معناها معروف، ألا ترى أنك تقول: أصبحت باردةً، وأمست باردةً، وهبت شمالاً، فكنَّى عن مؤنثات لم يجر لهن ذكر، لأن معناها معروف"[١٠].

---

(١) الكشاف ٢١٤/٤، وانظر: تفسير أبي السعود ١٦٣/٩.

(٢) تفسيره ١٤١/٣٠.

(٣) تفسيره ٤٣٦/٢٤ [ط التركي].

(٤) تفسيره ٢١٢/١٠.

(٥) تفسيره ٥٧٦/٢.

(٦) الكشاف ٢١٤/٤.

(٧) تفسيره ١٤١/٣٠.

(٨) محاسن التأويل ٦١٦٨/١٧.

(٩) تفسيره ٣٧٦/٣٠.

(١٠) معاني القرآن ٢٦٦/٣، وانظر: معاني الزجاج ٣٣٢/٥، والوسيط ٤٩٤/٤، والكشاف ٢١٤/٤، وففسير ابن عطية ٣١١/١٦.

واختاره بعض المفسرين، وممن اختاره الفراء كما تقدم، والزجاج[١]، والبغوي[٢]، والواحدي[٣]، وأبو حيان[٤]، والشوكاني[٥].

القول الثالث: أنه يعود إلى الأرض واختاره ابن كثير، وقال: "ولو أن هذا القائل - يعني من قال: جلا الظلمة - تأول ذلك بمعنى ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ أي البسيطة، لكان أولى، ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾، فكان أجود وأقوى - والله أعلم - ولهذا قال مجاهد: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ إنه كقوله: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾[٦]"[٧].

وهناك أقوال أخرى في مرجع الضمير، فقيل (جلَّى) للدنيا[٨]، وقيل: جلَّى ما في الأرض[٩] من حيوانها حتى ظهر[١٠].

قال السهيلي - بعد أن ذكر الأقوال سوى القول الأول -: "وهذا كله

---

(١) تفسيره ٢٣٢/٥.

(٢) تفسيره ٤٣٧/٨ [ط طيبة].

(٣) الوسيط ٤٩٤/٤.

(٤) تفسيره ٤٧٣/٨.

(٥) فتح القدير ٦٤٤/٥.

(٦) سورة الليل: الآية ٢.

(٧) تفسيره ٤١٠/٨ [ط طيبة].

(٨) قال الألوسي ١٤١/٣٠: "والمراد بها وجه الأرض، وما عليه".

(٩) قال السعدي ص٨٥٦: "أي جلّى ما على وجه الأرض وأوضحه".

(١٠) انظر: تفسير الزمخشري ٢١٤/٤، والسهيلي ٥٧٦/٢، والقرطبي ٥٠/٢٠، وأبي حيان ٤٧٣/٨.

بعيد؛ لأنه لم يتقدم ما يعود الضمير عليه"[١].

والراجح – والله أعلم – القول الأول؛ لأنه ظاهر السياق، ولأنه لم يجر لغير الشمس ذكر، وإن صح أن يعود الضمير إلى ما لم يذكر، كما قال الفراء، فهذا إذا كان ظاهر السياق يقتضيه كما في الأمثلة التي ذكرها.

المسألة الثانية: اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰهَا﴾ على قولين:

القول الأول: أنه يعود على الشمس؛ ويروى عن قتادة[٢]، ومجاهد[٣].

قال ابن جرير: "والليل إذا يغشى الشمس حتى تغيب فتظلم الآفاق"[٤].

قال ابن عاشور: "والغَشى: التغطية، وليس الليل بمُغطٍّ للشمس على الحقيقة، ولكنه مسبَّب عن غَشِي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداءً من وقت الغروب، وهو زمن ذلك الغَشى، فإسناد الغشى إلى الليل مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى زمنه، أو إلى مسبَّبه"[٥].

واختاره جمهور المفسرين، وممن اختاره ابن جرير – كما تقدم–،

---

(١) تفسيره ٢/٥٧٦.

(٢) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٣٧ [ط التركي] حيث قال: "إذا غشاها الليل".

(٣) ذكره عنه القرطبي ٢٠/٥٠.

(٤) تفسير ابن جرير ٢٤/٤٣٧ [ط التركي]، وانظر: الوسيط ٤/٤٩٤.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٨.

والثعلبي[١]، والسهيلي[٢]، والواحدي[٣]، والبغوي[٤]، والزمخشري[٥]، والرازي[٦]، وشيخ الإسلام كما تقدم، وأبو حيان[٧]، والشوكاني[٨]، والقاسمي[٩]، والألوسي[١٠]، وابن عاشور[١١].

قال أبو حيان عند هذه الآية: "وقيل الضمير عائد إلى الأرض، والذي تقتضيه الفصاحة أن الضمائر كلها إلى قوله ﴿يَغْشَىٰهَا﴾ عائدة إلى الشمس"[١٢].

القول الثاني: أن الضمير يعود إلى الأرض، وهو اختيار ابن كثير، وتقدم ذكر كلامه في المسألة الأولى.

---

(١) تفسيره ٢١٣/١٠.

(٢) تفسيره ٥٧٦/٢.

(٣) تفسيره الوسيط ٤٩٤/٤.

(٤) تفسيره ٤٣٧/٨ [ط طيبة].

(٥) الكشاف ٢١٤/٤.

(٦) تفسيره ١٩١/٣١.

(٧) تفسيره ٤٧٣/٨.

(٨) فتح القدير ٦٤٤/٥.

(٩) تفسيره ٦١٦٨/١٧.

(١٠) تفسيره ١٤١/٣٠.

(١١) التحرير والتنوير ٣٦٨/٣٠.

(١٢) تفسيره ٤٧٣/٨.

وهناك أقوال أخرى في مرجع الضمير لم أجد من اختارها[١]، فقيل: للأرض[٢]، وقيل: يغشى الدنيا بالظُّلم فتظلم الآفاق[٣]، ولعل المراد بالدنيا هنا الأرض.

والراجح – والله أعلم – القول الأول؛ لأنه هو ظاهر السياق، وقول جمهور المفسرين، بل حكى بعضهم الاتفاق على ذلك.

(١) انظر: تفسير القرطبي ٢٠/٥٠.

(٢) قال السعدي ص٨٥٦: "أي يغشى وجه الأرض فيكون ما عليها مظلماً".

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٩/١٦٣، والقرطبي ٢٠/٥٠.